أول رواية صدرت بالحجاز :



رواية ادبية علمية اجتماعية

بقلم



الموظف بديوان امارة المدينة المنورة

« ملحوظة هامة :

« قد فسرنا بعض الالفاظ اللغوية المغلقة »
« وحللنا بعض التراكيب المجازية باسفل »
« صفحات الرواية: ايضاحاً وتنويراً لافكار »
« الناشئين والمبتدئين من القراء الكرام »

« المؤلف »

١٣٤٩ هـ مطبعة الترقي بالقيمرية في دمشق ١٩٣٠ م

الاهداء

الى الناشئة المتعلمة ،

والى كل قارئ غيور :

اقدم هذه الرواية :

تبصرة وذكرى

المدينة المنورة في غرة ربيع الاول سنة ١٣٤٩ هـ

عبد القدوس الانصاري

مقدمــة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين وآله وصحبه اجمعين ومقتفي هديهم القويم الى يوم الدين ·

(وبعد) فغير خاف ما جلبته المدنية الغربية الحديثة على الشرق عامة ، وعلى العالم العربي الاسلامي خاصة من آفات فتاكة ، ودواهٍ دهياء · · مما كاد يودي ببنياننا الاجتماعيّ من اسّه ، ويقضي على كياننا الاخلاقيّ من رأسه ·

وبديهيٌّ أن هذا الفتح الاوربيّ انما اعتمد في توسعه وانتشاره على سلاحين : الدعاية القلميّة ، والآلاتِ الجهنمية ·

ومعلومٌ ما يمتاز به الأول من تأثيرٍ على الضمائر والشواعر · لذلك نُظِّمَ قواد حركة استعمار الشرق حَمْلَتَهُ تنظيماً فائقاً اذ جهزُوها بما لديهم من انفذ الوسائل وافعل الأساليب ·

كانَ من اهم هذه وامكنها وادخلها الى قرارات النفوس — تحبير تلك الروايات التي أُلبِسَتْ أكسيةً جذابــة من الاغراء الشائن بالفظائع والانسلاخ من قويم الآداب ، وشريف الاخلاق ·

لاقت هذه الدعاية — بما زُوِّدَتْ به — رواجاً عظيماً في سائر انحاء هذا الشرق وبالخصوص في العالم الاسلامي العربي ، فتغلغلت الى قرارات نفوس الجمـاء الغفير من ناشئة ومتعلمي فتيانه وفتياته معاً — الذين اصبحوا فيما بعد ضحايا مطالعاتهم وذبائح مروياتهم ...

وكان حقاً على الشرق عامة ، وعلى هذا العالم العربي خاصة ، بعد ان نهضا نهضتها الحديثة : ان ينظما حَمْلَةً دفاعية تقاوم تيار هذا السيل الجارف ، وتوقفه عند حده ... وذلك بمقابلة الابرة بسنان اختها !

ولكن مع كل اسف فقد ظل رجال التربية والاخلاق منا مكمومي الافواه الي أمدٍ بعيد حتى تفاقم الخطب واوشك الخرق ان يتسع على الراقع ...

هناك استيقظ نفر منهم لهـذا الشر المستطير فاعملوا اقلامهم لاخماد لهيبه ولكن من غير طريقه الذي منه انساب وانحدر ...

ذلك — والحق يقال — ما حملني الى تحرير مقـال في هذا الموضوع الخطير : موضوع الهداية والاصلاح (نشرته مجلة المرشد العربي الغراء باللاذقية في جزئها الرابع من السنة الاولى) عرضت فيه اقتراحي في هذا الشأن وذلك بما يلي :

«ثانياً : مقاومة تيار الفساد من نفس طريقه · ومعنى هذا اتخاذ

نفس الاساليب التي يروّج بها المفسدون صحفهم ودعايتهم في العالم (فالعبرة بالغايات) . وذلك بتضمين التثقيف الاسلامي للمناهج العصرية الجذابة ، ووضعه في قوالب تلائم الفكر العام : كالتحرير في بعض الاحيان على الاسلوب الروائي او الفكاهي وغير هذا مما يزيد في رواج صحفنا الاسلامية : اذ بمقدار رواجها يكون نجاحها . »

***

تلك وجهة نظري في كيفية صد تيار حملة الافساد الاخلاقية المتفجرة من براكين حضارة (الغرب) الحاضرة !

وهذه الرواية : (التوأمان) انما وضعتها عملاً بهذه الفكرة الشريفة !

وهي وان تكن غير مسبوكة تماماً على اصول (الفن الروائي العصري) فقد يجد القاريء فيها صورة صحيحة عن اضرار المعاهد الاجنبية المؤسسة في الشرق على مستقبل الشرق نفسه ؛ وذلك بما تلقنه لناشئته : من تعاليم التغرب والتذبذب المشين . كما ان بها « اي الرواية » صورة حقيقية لما قد يجني من الفوائد الجلى والتثقيف القويم في ظلال هذه المدارس الوطنية بالرغم مما يحتاط بها من عوامل الضعف والفشل داخلاً في ذلك الدعاية الى الاكثار من تشييدها .

ذلك كل غرض الرواية . وليس من مقاصدها ألبتَّة الاغراء بجفاء العلوم ، والفنون التي قد ضربت فيها (اوروبا) أخيراً بسهمٍ وافر .

لا . لا . لا يتسربن ذلك الى ذهن غبي لا يتدبر ... فهذه قد كانت منا ولنا فيجب اذاً ان نسعى سعياً حثيثاً متواصلاً لاقتناصها منهم وردها الى مهدها الاول . ولكن بذياك الاسلوب القويم المدمج بمدنيتنا السائر على مقتضى تقاليدنا نحن ؛ كيما توُب الينا عظمتنا التاريخية في ثوبها الفضفاض . وقد يعيد التاريخ نفسه . وما نهضة امة (اليابان) واسلوبها الوطني الشائق عنا ببعيد !

هذا والرجاء من السادة القراء ان يغضوا بعض الطرف عما قد يصادفونه في هذه الرواية من هفوات او غلطات . فانما هي عمل مبتدئ عاجز . وانما الاعمال بالنيات . وبالله المستعان

المدينة المنورة : عبد القدوس الانصاري



١ — التوأمان

في ذلك القصر الفخم الرائع القائم في قلب ذياك الحيّ الشرقيّ الجميل من هاتيك المدينة العربية الزاهرة التي طالما خفقت في فضائها اعلام الخلافة الاسلامية في ازهى عصورها الغابرة : كانت تقطن أسرة عربية مسلمة عريقة في المجد معروفة بوفرة الثراء .

وكان رئيسَ هذه الاسرة النبيلة شيخٌ وقور جاوز العقد الخامس من عمره الذهبي الى حلقة السادس يدعى : « سليماً » .

وكان سليم هذا كاسمه ، سليماً في طويته ، سلامته في ديانته وماضي حياته ، فطالما تراآت له الأيام في غلائل السعادة والهناء ؛ غير ان في قلبه لوعة لا ينطفئ أوارها الا بِتَنَسّم ريحانة الأبناء ؛ رجاء ان يكونوا له أبهج سلوى ، وأحسن ذكرى في هذه الحياة الدنيا !

فمكث طويلاً لا يألو جهداً في الابتهال الى بارئ النسم : ان يتحفه بأمنية أمانيّه ، حتى اذا وافى الوقت المقدور حبته العناية الالهية بتوأمين اثنين . فأسمى احدهما : « رشيداً » والآخر « فريداً » .

ولشدَّ ما سُرَّ بنُجوم[1] هاتين الزهرتين الناضرتين في روضة الوجود الزاهر لذلك لا غَرْوَ[2] أن يكونا موضع حفاوته ، وموطن رعايته .

(١) نجم الشيء ينجم نجوماً : ظهر وطلع : المنجد . ص ٥٩٢ طبع عام ١٩١٣ م .

(٢) اي لا عجب .

فعاهد الله في اخلاص لأن ابقاهما له فلن يُرهقهما [١] من امرهما عسراً حتى يبلغا اشدهما ويستقلا بشأنهما ·

٢ — التوأمان يجتازان دور الطفولة

واجتاز [٢] التوأمان دور الرضاع فالفطام ، وترعرعا ، وهما صحيحا الجسم ،موفورا النشاط · بسبب مايحاطان به من ضروب العناية والحياطة ·

واذ ذاك عنّ [٣] لوالدهما ان يدخلها بادئ بدء مكتباً تحضيرياً يدرسان فيه مبادئ القراءة والكتابة العربية ·

ففي ذات يوم جمعهما وابدى لهما رغبته هاته ؛ واعلمهما في لطف وحنوٍ [٤] انه قد عقد النية على ابرامها (اذا هما قابلاها بارتياح) شارحاً لهما مزايا العلم ، ومنوهاً لهما بان التعلم في الصغر كالنقش على الحجر · وفوق هذا فقد وعدهما بان يمنحهما ازاء قبولها بأنفس التحف ·

فكان منهما ان ارتاحا لرغبة والدهما السنية مغتبطَين بها ايما اغتباط

و بالفعل فقد اخذ بيدَيهما في صباح اليوم التالي الى المكتب التحضيريّ ، وسلمها ليد المدير · وبالغ في وصايته والحاضرين من المعلمين — بهما خيراً · وذلك بتعهدهما في التعليم خِصّيصى بنصح واخلاص ، وضمن دائرة العطف والحسنى ·

(١) اي فلن يكلفهما (٢) بمعنى : قطع · (٣) اي ظهر · (٤) اي تعطف ·

ولمكانة الشيخ في النفوس : قوبل رجاؤه من الجميع بالقبول ·
فانصرف الى مقره ، ولسانه يلهج بالثناء على هؤلاء ، وفؤاده مملوء بالجذل والرجاء ·

٣ — التوأمان في المكتب التحضيري

ودخل التوأمان قاعة الصف الاول من المكتب التحضيري فهالهما لأول مرة ذلك الدَّويُّ المنبعث من ارجاء القاعة في استمرار وانتظام ·

فلا بدع والحالة هذه : ان تكون منهما دهشة القادم الساذج ، بلَهَ انكماش الغريب المرتاع ·

فلاحظهما المدير وهما على تلك الحال ، فاقترب منهما نجيا ، ولاطفهما قائلاً لهما بكل بشاشة ولين : —

« ايها التلميذان الجديدان : لا تظهرا اندهاشاً ، ولا تبطنا انكماشاً فوالدكما الوقور لم يُلقِ بكما الى مَسْبَعَة ، ولم يرمكما في مَضْيَعة · وانما أودعكما حبا برفيكما وسعادتكما الى أبَرِّ أسرة ، وخير منزل لحاضركما ومستقبلكما ·

لا تُراعا ! فما هذا المكتب الادار كما الثانية تتمتعان فيها بما لذَّ وطاب من مبادئ الفنون وزهرات العلوم الفوّاحة ·

لا تُندهشا ! بل امتلآ اطمئنانا وابتهاجاً أن مَنَّ الباري عليكما

فبوأ كما هذه الدار التي منها مبدأ رقيكما ومنشأ تقدمكما ان شاء الله »

وهنا آنس منهما استئناساً .. اذ طفحت على جبينيهما دلائل البشر والانشراح فدعا اليه بعض خيرة المعلمين واوعز اليه بتعليمهما وارشادهما بكل نصح وفق رغبة والدهما الوقور ٠

***

وابتدأ التوأمان في تعلم الهجاء العربي منذ ذلك اليوم ٠ حتى إذا أذن بانقضاء ساعات الدوام : انقلبا الى والدهما قريري العين ، فنوها له في غبطة وسرور عن النصيحة التي اسداها المدير اليهما ٠

فكان من الشيخ ان ضم اليه هذا ، وقبل جبين الآخر .. استبشاراً بما بدا عليهما من علامات الرغبة والنشاط ٠ ولم يدع تحفة ظريفة ولا هدية نفيسة لديه الا وقدمها اليهما وفاءً بمقطوع وعده . والوعد على الكريم دين ٠

حتى اذا ارخى الليل سدوله [1] ناداهما في تلطف ٠ ورجا منهما ان يعيدا درسهما الاول على مسمع منه ٠ فالفى منهما أمارات [2] الجد والذكاء ٠ فتهلل جبينه فرحاً ٠ واذ ذاك بسط لهما بدوره نصائح في شئون الدراسة وكان مما اوصاهما به المحافظة على توفير عموم الاساتذة ٠ وأملاهما هذين البيتين المشهورين :

(١) عبارة عن اظلام الليل ٠ (٢) الامارات : جمع امارة : وهي العلامة ٠

ان المعلم والطبيب كلاهما : لا ينصحان اذا هما لم يكرما؟

فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه واصبر لجهلك ان جفوت معلما!

فحفظاها في سرعة البرق واوضح لهما مغزَيَيْهِمَا . فقابلا نصيحة والدهما الرؤوم [1] بالسمع والطاعة .

وهكذا كانت خطة التلميذين : (رشيد) و (فريد) بعدئذ :—

« يوقظهما والدهما عند انبلاج الفجر فيتوضآن معه ، ثم يبكر « بهما الى المسجد الجامع المأثور حيث يؤدون صلاة الصبح مع « الجماعة في وَسَط ذلك السكون المملوء روعة وجلالاً ، وعظمة وجمالاً . « ثم ينثني [2] بهما الى المنزل وقد هُيِّئَ لهما طعام الفطور فيتناولانه هنيئاً ، « و يشربان بأثرِه القهوة العربية مريئاً . وفي الحال ينهضان فيرتديان « ملابسهما المدرسية النظيفة الجميلة ويغدوان الى المدرسة فيصلانها « قُبيلَ سائر الطلاب . و يمضيان سحابة دوامها في الحفظ والتكرار بكل « جد واعتناء . ثم ينقلبان الى الأهل في نشاط وسرور . . ثم ما تأذن « رايات الليل السوداء بالقضاء على جحافل النهار البيضاء الا وقد اجتمع « الصِنْوان [3] كَرَّةً اخرى يتذاكران بضع ساعات على ضوء ذلك المصباح (الكهربائي) المشرق — درسيهما بالامس . ثم ينامان ملء اجفانهما « في هناء واطمئنان .

(١) اي العطوف . (٢) ينثني : يعود . (٣) الصنوان : الاخوان الشقيقان .

« و يبتدئان في الصباح التالي بنفس مشروعها بصباح اليوم الماضي »

لهذا لا غرابة ان يكونا موضع عناية المعلمين الخاصة . لما أودِعَ في فِطَرِ هؤلاء — من الانكباب على تثقيف من يتوسمون فيه من ابنائهم الروحيين — جداً ودأباً على التحصيل .

ثم لهذا نفسه لا عجب ايضاً ان يكونا مغبوطَيْنِ مِنْ قِبَلِ من في مكتبها من الزملاء :

على ذلك المبدأ الحميد درجا ، وعلى هذا النظام الميمون سارا . فما كادت سنوات الدراسة التحضيرية تنتهي ، الا وقد برز التوأمان الجدّان : كوكبين لامعين في سماء النجاح ، ودرتين فريدتين في جيد التقدم والفلاح .

* * *

٤ — بعد الفراغ من التحضيري

ها هو الأب « الشيخ سليم » منثلج الصدر ، شديد الفرح ، عظيم الاستبشار بتفوق ابنيه في ميدان التعلُّم الاوّلي .

وها هما التوأمان الفائزان بدورهما جذلان ، ضاحكا السن ، متهللا الجبين — لفوزهما على بقية الاقران .

ثم ها هي ردهة[1] القصر الواسعة وقد اكتظت بعشرات الوفود

(١) الردهة : اوسع محل في البيت .

المهنئين من سراة المدينة واعيانها — من اصدقاء ومعارف الشيخ سليم، مقدمين لحضرته باقات[1] التهانيء الصميمة بنجاح نجليه وحوزهما قصب السبق في مضمار التعليم التحضيري الذي هو اساس الرقي ومهد التقدم ·

وهاهو الشيخ سليم يستقبل زائريهِ الكرام — كلاً بما يليق به من اللطف والبشاشة والاكرام مقابلاً تهانئهم بتقديم جزيل الشكران وفائق الامتنان ·

ثم ها هم الزائرون المهنئون يباركون الطالبينِ الفائزينِ، ويشجعونهما على المثابرة على الجد الحثيث المتواصل الى ان يرتقيا قمة المجد العليا ·

ثم ها هم قد بدأوا يتباحثون فيما بينهم في شتى المواضيع · وها هو البحث قد جرّهم بقاعدةِ — « الحديثُ ذو شجون » الى الخوض في المدارس ومناهج التعليم ·

وها هم قد انقسموا في هـذا الموضوع الى حزبين : حزب يشيد بالمدارس الاجنبية، وينوه بما لها من آثار وافضال في ثقافة الناشئة العصرية · مندّداً بالمدارس الوطنية أيما تنديد · · حاثاً على انتجاع مناهل الاولى المترعة بما يفيـد الفكر أيّتما افادة · اما الوطنيـة · اما الديانة الاسلامية : فمعلوم ان هذه المدارس بالرغم عن كونها اجنبية المنشأ فانهـا بمعزل عن التأثير فيها بما يسوء · حيث لا تزال تعلن

(١) الباقة : الحزمة من الزهور ·

دائماً ان مبدأها الوحيد هو التثقيف الفكري البَحْتُ باسلوب قويم لا يكاد يصطدم بالديانات والمبادئ مطلقاً ٠

وممن راح يناقض هذه النظرية ، ويهدمها من اساسها ، حاملاً على تلك المدارس الاستعمارية حملة شعواء ، مبرهناً على انها لم تؤسس من اول الأمر ولن تؤسس الى آخره ، الا لتخريب الشرق وتسويس ادمغة ابنائه ؛ اتماماً للقضاء عليه بدعوى انقاذه وتثقيفه٠ فالغربي لا يخدم الا مصلحته ؛ منوهاً عما انكشف حديثا وقديماً من اغراضها الخبيثة في هذا السبيل ؛ وموضحاً ان الغربيين وهم الحريصون على الانانيةِ والاستثمار والاستعمار ليسوا من الانسانية او البَلَه بحيث يهجرون ديارهم و يحرمونها من ثمرات علومهم بقصد غرسها في الشرق الذي اغرموا باضطهاده واستباحة محارمه ، واستنزاف خيراته ومحق دياناته وغمط مدنياته ، ذائداً عن كرامة المدارس الوطنية التي شيدت بالشرق لتنشله من هوة الخمول وتأمينه من انياب الدخيل ، حاثاً على مناصرتها وتشجيعها حتى تكون وفق المرغوب منها ٠

واخيراً احتدم الجدال بين اثنين من هؤلاء الزوار٠ فراح كل منهما يوقع بنظرية الآخر ، مؤيِداً ما ذهب اليه حزبه بكل ما يملك من برهان و بكل ما أوتي من بيان ٠

كان كل هذا بمحضر من كلا التلميذين : رشيد وفريد ، وبمشهد

من نفس والدهما الذي لم يَنْبُس (١) ببنت شفة يُفهمُ بهـا مشايعته لنظرية ضد اخرى ...

و بالطبع فمثل هذه المباحثة قد تبقى اثراً قويا في عقليات الناشئة المتعلمة ، و بالفعل فقد تكونت إثر ذلك لكل من التوأمين نزعة لم تكن بالنزعة التي تنضم عليها جوانح اخيه نحو المدارس والتعليم .

***

رشيد اقتنع تماماً بنجاح المدارس الوطنية وسلامة نتائجها وحسن عواقبها ؛ كما ثبت في ذهنه اضرار المدارس الاجنبية ، واضطراب نتائجها لغش موسسيها وخداع القائمين بشؤنها ...

لذلك اطمأنت نفسه للانتظام في سلك الأولى اذا ساعد المقدور ووافق الوالد :

اما فريد فعلى العكس من ذلك . إنه قد شغف بما يسمى مدارس اجنبية ، اقتناعا فيما يظهر بثبوت نظرية الفريق الذي قد كان اطنب في تقديسها وتغالى في تفخيمها ، ولانه في الواقع كان كثيراً ما يمر في منصرَفه الى الدار اثناء انتظامه بالمكتب التحضيري — على احداها ، فيطل من احدى نوافذها السفلية الى داخلها فيشاهد في عرصتها الواسعة ألعاباً شائقة ولهواً مغرِيا ...

***

(١) اي لم ينطق .

هكذا تكونت نزعتا رشيد وفريد .. وإذاً فما بقي لهما الا أن يَتلقَيَا الكلمة الاولى والآخرة من سيدهما الوالد :

وها هما وقد احتفّا به من جانبيْهِ . وقبيل ان يُعرضا عليه فكرتيْهما بدههما هو قائلاً من تلقاء نفسه :—

لقد وَعيتُما كلاكما ما دار من المناظرات في مناهج الثقافة بين زائرينا هنـا بالامس . وعملا بمبدئي معكما وحبا بارضاء خاطريكما وعدم تكليفكما ها انا ألقي الحبل لكما على الغارب . فليعرب لي كل منكما عن نوع المدارس الذي يود الالتحاق به فاناله عند ما اراد .

***

لقد اسلفنا لك ان الشيخ «سليما» كان قد عاهد الله بتحرير ابنيه من قيود الارهاق ، وبالاحرى من قيود التربية المحتومة ، والارشاد الالزاميّ . ومعاملتُه هاته معهما برهنت لنـا على انه جِدٌّ وفيٌّ بعهده ، وفاء دل على ما في طويته من بساطة وسلامة . هو في ساعة احتدام المناظرات لم ينبس[1] بكلمة يوضح بها وجهة نظره . ثم لا يكتفي بذلك حتى يعلن التوأمين بانهما حران طليقان فيما يهويان ؟

ولكن لا غرابة : فهذا شأن فئة ليست بالنذر اليسير من اولياء امر الطلاب يُرْخُونَ لهم العنان في منهج التثقيف الذي يهوون ثم لا يعبأون

(١) اي لم ينطق .

باعوجاج خطتهم ولا بسوء سلوكهم الا اذا بلغهم مثلا رسوبهم في اختبار جغرافية قطعة حقيرة من قطع اوروبا او امريكا . فاذا حازوا (الليسانس) او (الدكتوراه) مثلاً آبوا الى اوطانهم ناعين عليها تقاليدها وعقائدها ، ناقمين على انفس اوليائهم الذين اوصلوهم الى هذه الذروة – جمودهم على الاساطير التي مضى وقتها ... وهناك تنشب معركة منزلية هائلة كثيراً ما تلتهب لها القلوب حسرة وأسفاً ، وتذوب لها الضمائر حزناً وأسى ...

***

قلنا ان الشيخ « سليماً » تفضل ... فمنح ابنيه (حرية المصير المدرسي) رغبة في رضاهما .

فاما « رشيد » فقد اعرب عن رغبته في اللحاق بمدرسة ابتدائية وطنية هناك لها تاريخها المجيد في تخريج متفوقين بارعين .

فامضى الوالد رغبته .

والتفت الى شقيقه « فريد » كأنما يستمليه ارادته . فابدى له تعلقه بمدرسة ابتدائية اجنبية ، بالمدينة (هي التي كثيراً ما تستوقفه مناظرها في طريقه) إذْ مديرُها وثلثا معلِّميها من قديري الاجانب... المخلصين ... والثلث الباقي من احرار نوابغ الوطنيين ...

فانفذ له الشيخ طلبته ايضاً .

٥ – التوأمان في الدراسة الابتدائية

وما يوشك زمن العطلة الصيفية ينقضي حتى نلمح الشيخ « مليماً » مُمسِكاً بيدي نجليه مُسرعاً بهما نحو مديرَي تينِك المدرستين الابتدائيتين اللتين عرضا عليه رغبتيهما في دخولهما فوافق .

هذا « رشيد » بين يدي المدير الوطني الغيور « نبيه افندي » يوعز الى الكاتب بقيده في ضمن طلاب المدرسة وذلك بعد اجراء الفحص اللازم .. مخبراً والده في توقير بأن مُبتدَأ الدراسة يوم الاثنين المقبل اما النفقات الدراسية فهي لا تتجاوز ثلاثين ليرة انكليزية لكل عام . اي ثلاثة ليرات لكل شهر دراسي .

ثم ها هو « فريد » بين يدي المدير الاجنبي مسيو « برنار » يأمر بقيده في عداد طلاب مدرسته ، ويشعره مباشرةً بأن فتح المدرسة يكون يوم السبت القادم .

اما رسم المدرسة السنوي فهو خمسون ليرة ليس غيرُ !

***

وبزغت شمس صباح يوم السبت الموعود وراء غمام قاتم لم تشأ الرياح الا ان تعبث به فتبدد جحفله قليلاً عن جبهة « اخت

يوشع »[1] لتطل بشعاعها الملتهب من خلف سجوفه الى نافذة تلك الغرفة العليا التي لا يزال بها « فريد » يغط في المنام .. فما كان منه بعد ان أثَّرت بوجهه أشعة تلك (الطارقة) الحمراء الا أن هبَّ من فراشه فغسل وجهه ويديه بالصابون . ثم دعا الخادم ليُحضِرَ له طعام الفطور . واذ تناوله بسرعة وَثبَ الى بذلته المعلقة عَلَى « مِشْجَبٍ »[2] بالغرفة ، فارتداها في خفة ، وعمل لنفسه (التواليت) باكمله . ثم توجه الى المدرسة

وهناك ألفى جماهير الطلاب قد تناثلوا[3] اليها مصطفين بساحتها صفوفاً صفوفاً . والمدير واقف في وسطهم . وقد شرع يلقي عليهم التعليمات الاساسية للمدرسة . وطبعاً فقد كان في مقدمتها وجوبُ تحرُّر الطالب اثناء وجوده بالمدرسة من ربقة ديانته ··· ليتقيد بالواجبات المختصرة القدسية ··· التي يُلقنها اياه « الأب يوحنا » ··· مع عدم التحاور بقدر الامكان الا باللغة الاجنبية المقررة في البرنامج ··· ليتسنَّى[4] للتلميذ الوطني – والحالة هذه – اتقانها واجادتهـا والنطق بها كما لو كان واحداً من راضعي لبانها في أوجز مدة ممكنة ···

---

(١) كناية عن الشمس · (٢) آلة لتعليق الثياب معروفة · (٣) اي انصبو اليها · (٤) اي ليتمكن ·

وانتهى المدير من خطابه . فوزعت التلامذة على الصفوف بحسب درجاتهم وعينوا لفريد مقعداً بالصف الأول .

ومرت بضع دقائق ، واذا بالمعلم الاستاذ « أسيف » داخل عليهم فوقفوا موءدين التحية الرسمية لحضرته وشرع يلقي درساً عليهم كان في جغرافية (اوروبا) ...

ومن غير مناسبة واضحة انتقل بهم الى ذم الشرق والحط في مدنياته فصار يكيل له الطعن جزافاً [1] ... ولم يكد ينتهي من هذه المهزلة حتى دق الجرس ايذاناً بانتهاء حصته . فقام وتولى من الباب الذي منه أتى .

خرج طلاب الصف للفسحة .. واذ انتهت مدتها رجعوا .. فتلقوا الدروس وهكذا حتى اطلق المدفع . فتجهزوا للعودة الى اهليهم وفي الجملة صاحبنا « فريد » .

واذ دخل على ابيه بادره هذا بالاستيضاح عن حالة المدرسة ?— وعن وجهة فكرته نحوها :

فاجابه قائلاً :—

نعم يا سيدي الوالد اني جدُّ سعيد بانتظامي في عقْدِ هذه المدرسة الفريدة . انهم يا مولاي : أراحونا قبل كل شيء من عناء القيود

(١) اي من غير دلائل ولا تبصر .

الدينية الكثيرة حفظاً لمدة الدراسة من ان تضيع هباءً فيما لا اتصال لها به . ثم فوق هذا أَلْزَمُونَا بان نتمرن على التخاطب باللغة الاجنبية المقررة بمدرستنا لنتمكن من استيعابها في أقرب مدة .. حبا بسرعة تقدمنا ونجاحنا . ثم قال : لذلك كله يتمنى من صميم فؤاده لو يسعد الحظ أخاه « رشيداً » فيصمم على الانضمام الى هذه المدرسة الراقية ليهتصرا[1] معاً ما لذ وطاب من ثمار المعازف باجود اسلوب واقوم سبيل .

لم يصل « فريد » في اطرائه الى هنا حتى تفجر بركان غيظ اخيه « رشيد » فعارضه بكل تأثر واحتدام قائلاً :—

لا . لا . بل انا الذي يحق لي ان اتمنى ان ينقذك الله من هذه الهُوة السحيقة التي ارتميت في احضانها الوبيلة ظاناً بصنيعك هذا انك تحسن صنعاً ، بينما انت جد مُسيء الى نفسك ، ثم الى امتك باساءتك الى نفسك !

قاتل الله مدرستك الاستعمارية الوقحة التي تُنَفِّرُك عن تعاليم دينك الحنيف ، باسلوب ماكر استهواك يا ساذج الفكر و يا قاصر النظر : لتوقعك في كنائس الكنائس ، وتلجم لسانك عن الانطلاق في رياض لغتك الفيحاء ؛ لتوغلك في مسابخ اللاتينية وأذنابها المشئومة ..

(١) اي ليقتطفا .

هذا وان يوم الاثنين القابل هو اليوم الذي تفتح فيه مدرستنا الوطنية الراقية بحق إن شاء الله فان كنت ملحوظاً بعين السعادة فسترفض العودة الى ذلك الفخ الأجنبي ... وتطمئن لمرافقتي الى مديرنا الوطني الغيور . ولحبه لمواطنيه واخلاصه لسيدي الوالد لا اراه يتوقف في قبولك وان جئت متأخراً .

وقدم طعام العشاء في تلك الساعة . فكان السبب في انقطاع المحاورة في هذا النهار . غير انهما لما أوَيا الى فراش منامهما لم يدعا باباً من أبواب المناظرة في موضوع المدرستين الا ولجاه — حتى آل الامرُ الى مناقشة حادّة دوى صداها المزعج في فضاء الغرفة الجميلة فردّدته سائر انحاء القصر العظيم ... ثم كان صمت فجائي من كلا الاثنين . إذ إنّ الشيخ الوالد قد ايقظه من لذيذ منامه ذلك الصدا المتجاوب فصعد اليهما مسرعاً . واذ لحاه داخلاً وَجَمَا [1] خجلاً . وبعد ان عاتبهما عتاباً خفيفاً واصلح ذات بينهما ظاهراً : عاد .

***

لم تَرنّ الغرفة التي طالما فاضت بالانس — بصدا ضحكات التوأمين اللطيفة هذه الليلة . بل ولم يتبادلا حسب المألوف تلك المداعبات الاخوية البريئة التي طالما فاحت الغرفة الظريفة بعبيرها

(١) اي أمسكا عن الكلام متأثرين .

المسكيّ . بل ها هما كلاهما وقد استقبلا على سريريهما عالم المنام الفسيح في تأثر وقلق واضطراب .

وبالتالي فلم ينثَنِ «فريد» عن مدرسته . فقد غدا اليها مبكِّراً . وكأنما زادته نصيحة شقيقه «رشيد» شغفا بها وتعلقاً .

***

ووافت ليلة الاثنين . فكان «رشيد» يشعر بسرور داخليّ عميق . واذ مضى الليل الا اقله قام وتوضأ وهبط الى الطابق الاوسط الذي به (مقر الوالد) فافاقه بكل ادب واحترام . وآذنه بلطفٍ — بدنوّ الصباح . ثم عاد صاعداً الى الغرفة فما ترك وسيلة لايقاظ أخيه «فريد» الا وعملها . واذ ذهبت كل جهوده في هذا السبيل سُدًى نزل مستاءًا فرافق والده الى الجامع فأدّيا به صلاة الصبح مع الجماعة ثم رجعا فتناولا الفطور معاً .

نهض «رشيد» فارتدى ملابسه المدرسية وتأبط حقيبة كتبه ولَثَمَ الانامل ابيه ملتمساً منه الدعاء بالتوفيق . فافرغ له ما في تاموره[1] من ابتهالات بنَيْلِ المنى وتحقيق الرغبات . واذ ذاك انطلق الى المدرسة يخامره[2] سرور جم وأمل كبير . فألفى اخوانه مصطفين بعرصتها حسب الأصول .

(١) التامور : القلب . (٢) اى يخالطه .

ومـا هي الا دقائق وجيزة حتى وقف المدير الوطني القدير « الدكتور محمود » في وسط ذلك المجمع الحاشد . وألقى عليهم خطاباً افتتاحياً بليغاً مؤثراً بلسان عربي مبين برهن على مـا في قلبه من عاطفة شريفة ومبداء سام وايمان كامل .. ثم جلس .

وتلاه « السكرتير الاستاذ برهان افندى » فأملى عليهم التعليمات الاساسية لاستحقاق رعاية المدرسة وعنايتها . وكان في اولها المحافظة على فرائض الدين الاسلامي منذ نعومة الاظفار لينشأ الطالب وقد امتزج نوره الوضاء بدمه ولحمه .. وهناك اقتران الفوز وازدواج السعادة ، مع التمرن بقدر الطاقة على التكلم باللغة العربية الفصحى في سائر الاوقات وخصوصاً في اثناء ساعات الدوام ، والتمسك بحسن الاخلاق سواء في داخل المدرسة او في خارجها .

وبعد انتهائه من هذه المهمة يبادر الطلاب كل فريق الى صفه . ورشيد في الصف الاول .

ولم تمض برهة وجيزة حتى يوافيهم الاستاذ الاختصاصي في التاريخ الاسلامي «حسن افندي » فوقف الصف تحية بقدومه وابتهاجا بدأ يُلقي عليهم درساً في (التاريخ الاسلامي) المجيد ، مبتدئاً بمبدإ سيرة سيد الخلق (صلعم) الذي لقب بين عشيرته (بالامين) من قبل البعثة باعوام عديدة .

وظل ينثر عليهم دُرَراً قيمة من هـذا القبيل باسلوب ممتع خال من التكلف والتمويه حتى حان وقت انصرافـه . فانصرف والقلوب ترفرف عليه غبطة وشكراناً .

وتوالت الدروس تتلوها الفُسَحُ حسب النظام المتبع حتى انقضى وقت الدوام فتوجه رشيد الى داره .

اقبل الى ابيه ووجهه متهلل وثغره باسم ..

الاب سليم — كيف تجدك بالمدرسة يا رشيد ؟ ارى علائم الابتهاج مرتسمة على جبينك !

رشيد — أجَلْ يا أبَتِ اني مغتبط جداً بدخولي لهذه المدرسة واحمد الله الذي لم يخيب املي ازاءها وكان عند رجائي به . فقد الفيت من هذه المدرسة روحاً اسلامية وطنية عالية . وبكل اعجاب يسرني ان اعرض لسيدي الوالد ان اول درس تلقيته بين جدرانها اليوم كان في تاريخ الاسلام المجيد . وايم الحق انه لدرسٌ جِدُّ مفيد . ولقد برع استاذنا الاختصاصي « حسن افندي » في تخطيط خريطة الادوار الأولى لنشأة الاسلام بصورة فائقة حرّكتْ فينا نحن الطلابَ عِرقَ العروبة الخامد وذكرتنا بالمجد التالد . والخلاصة يا مولاي ! اني لمسرور الى النهاية بالتحاقي بهذه المدرسة . لذلك آمل ان تكون لي الخطوة الثانية الى قمة التعليم العالي فالتخصص

باحسن اسلوب واقوم طريق . وما ذلك على الله بعزيز .

الاب سليم — اعلم يا بُنيّ (وُفقتَ لجادّة الرشاد ونُكِّبتَ عن مَهيَع[1] الفساد) : انى حين رزقتكما كنت آليت على نفسي اذ ذاك ان لا احملكما ما تكرهان . بناء عليه منحتكما الحرية المدرسية منذ قطعتُما شَوْط التعليم التحضيري فانت سلكت هذا السبيل الذي يميل اليه قلبي . فانا عليك لذلك جِدُّ راضٍ . بل وطالما دعوت الله لك بالفلاح . اما شقيقك فريد فدخل من الباب الآخر وانا عملاً بالعهد الآنف الذكر انفذتُ له مـا أراد . على انى — بسبب ما بَدَر[2] منه — على وَجَلٍ من امره . . . وارجو الباري ان يكون عند حسن ظني به ! وعلى كل فأنتما شقيقان توأمان : والرشيد العبقريّ منكما هو الذي سيكون خليفتي ويحوز الحسنَيَينِ .

رشيد — قبل كل شيء أدعو الله لك يا أبتِ بطول العمر ونيل الرجاء وبالتالي أرجو لنفسي ولأخي فريد ان نكون كلانا عند مُناك بنا . كما ربيتنا صغاراً وكنت لنا خير الوالدِينَ معاملةً ، واشدهم بنا رأفةً ورحماً . . وأني لاشكر الباري إذ منَّ علي بتوفيقي لسلوك المنهج الذي يَروق لك يا سيدي الوالد .

---

(١) المهيع : الطريق العظيم . (٢) اي ظهر .

الاب سليم — ان افترافكما يا ابني في منهجي التثقيف هو بمثابة مسابقة معنوية بينكما ؛ وسنرى ما يكون .

ويصمت الشيخ ، فيقوم رشيد ويلثم انامله ، ثم يرقى الى غرفته فيطالع بها جملة من الدروس الماضية والآتية .

حتى اذا اقبل الليل يخرج الى ذلك البستان البديع المحيط بالقصر فيكرر به دروسه مرة ثانية على ضوء ذلك المصباح « الكهربائي » المنير . فاذا أحسّ بسنةٍ من النوم تسري الى أجفانه يعود الى الغرفة فينام على سريره هادئاً مطمئناً . الى ان ينادي المؤذن بالفجر فيثب من علاَ[1] فراشه . ويتوضأ على عادته وينزل فيصاحب اباه الى المسجد . ثم بعد اداء الصلاة يعودان فيتناولان طعام الفطور معاً . ويبكر هو الى المدرسة فيمضي وقت دوامها في الحفظ والمذاكرة وتلقي الدروس والتكرار .

على هذا درج منذ اول يوم حتى أخريات السنة النهائية للدراسة وهناك تراه وقد اتخذ من السهر المتواصل مسامراً ، ومن الجد المستمر أليفاً ملازماً .

فقلما يُرى منفصلاً عنهما ، الا في تلك الساعة : ساعة الأصيل[2] التي اعتاد ان يتروّض فيها بضواحي المدينة الجميلة وفي خمائلها

(١) اي من فوق فراشه . (٢) الوقت الذي بين العصر والمغرب .

الانيقة [1] مشياً على الاقدام .. ابقاءً على بقية قواه الجسمانية التي كاد ان يُخني [2] عليها ادمانه المطالعة بالصفة المذكورة ، ثم استجماماً لفكره الذي طالما يكدسه [3] بعويصات المسائل الحسابية والجغرافيةّ والتاريخية والهندسية الخ ..الخ ...

وما فتيءَ على ذلك المنوال حتى يوم اعلان الفحص الختامي . وهناك ترى « رشيداً » وقد ارتدى بالمرة (مُسُوحَ) الاعتزال عن الناس . فكأنه ذلك « الصوفي » المتبتل السائر في دور الفناء . حتى اذا لم يبق الا يومان اثنان لافتتاح ذلك المعرض العظيم : رفّه على نفسه نوعاً مّا ، استعادةً لنشاطه ، واستعداداً لخوض معمعة الامتحان النهائي . وقامت هيجاؤه على ساق وقدم فخاضها « رشيد » بكل ثبات واقدام . ولم ينجل الغبار الا وهو في طليعة الفائزين غير مُزَاحَم .

***

أما « فريد » فقد قدمنا لك ما كان من انتظامه بالمدرسة الاجنبية ، واتينا لك بالمحاورات الحادّة التي جرت بينه وبين شقيقه هذا « رشيد » من اجلها ولسببها .

(١) اي بساتينها الجميلة . (٢) اي يقضي (٣) اي يملؤه .

واليك خطته بعد ذلك :—

انه نسي او تناسى الحرارة الوطنية والدينية معاً بعد بضعة شهور مرت على دخوله هاته المدرسة الابتدائية .

والسبب الوحيد في هذا الشذوذ المشئوم ما كان يحشى فكره دواماً من الطعن والايقاع بصميم ذينك كليهما باساليب مكريّة تتسرب الى اذهان امثاله ، من دون استئذان .

فكان دأبه انه كلما عاد من المدرسة فاجتمع بافراد أسرته ينوّه لهم عما تلقاه بها من اشياء في هذا القبيل متفاخراً بالتشدّق بها .

***

وكان كثيراً ما يفيقه والده لصلاة الفجر مثلاً فيقوم وكله تأففٌ وضجر ، قائلاً في نفسه جزى الله عني تلك المدرسة خير الجزاء ، فانى لا اجدني مستريحاً من هذه التكاليف المرهقة — الا اذا كنت بين جدرانها . ولكن لأعتبرْ هذه الحركات التي سأؤديها : (قياماً وقعوداً ، ركوعاً وسجوداً)— تكملةً للألعاب الرياضية التي كنت قمت بها امس في المدرسة ...

فيقوم ويأتي باعمال الصلاة ، تفكيكاً لتخدّر أعصابه ، واجراءً لدمه الذي قد اعتراه فتور بسبب ما كان فيه من النوم طول الليل ...

***

ما برح « فريد » في مدرسته سائراً في سلوكه هذا ، مشمولاً لاجله بعين الرضا من المدير الذي كثيراً ما يسوغ له ما كان يقع منه من تقصير . . حتى حان وقت الفحص الختامي . فاختبرَ بصفة استثنائية . فكانت النتيجة المقررة ان اكتسب الدرجة الاولى في النجاح .

---

٦ — التوأمان في الدراسة الثانوية

ها هما التوأمان بعد ان قطعا مرحلتي التعليم التحضيري ، فالابتدائي : قد استقبلا الآن المرحلة الثالثة . الا وهي مرحلة الدراسة الثانوية .

وبالطبع فانت على علم ان لكل منهما نزعة مدرسية غير ما للآخر .

اما « فريد » فقد اختار الانضمام الى المدرسة الاجنبية التي يقوم بشئون ادارتها احد الاجانب المستعمرين أيضاً . وفي اليوم التالي ذهب به والده الشيخ الى مديرها المشار اليه . واذ ابدى له أن غرضه قيد ابنه هذا الحاضر معه في عداد طلاب مدرسته : التفت اليه وخاطبه في شيء من الجفاء الاوروبي قائلاً : —

بأية مدرسة ابتدائية تخرج ابنك هذا ؟ فانا لا نعتبر غير

شهادات المعاهد الغير الوطنية ·· فان كان من خريجيها فنحن نقبله بعد التحقيق من ذلك والا فنحن معذورون في رفضه .

فريد في قلق واضطراب — اجل يا جناب المدير ان الداعي من خريجي المدرسة الابتدائية الامريكية ونجاحي وحسن سلوكي محققان ومسجلان لديها بموجب هذه الشهادة التي اتشرف بتقديمها الى جنابكم : (ويناوله الشهادة) .

فيتناول المدير منه الشهادة ويتحول الى المسرّة (التلفون)
— آلو ! آلو !!! اعطني جناب مدير المدرسة الابتدائية الامريكية .
(وتمضي برهة يحضر فيها المدير المطلوب على التلفون) فيخاطبه المدير:—

— بونجور يا مسيو : أصحيح أن من بين خريجي مدرستكم لهذا العام فتى يدعى فريداً ؟

— اجل : ان المذكور من متخرجي مدرستنا ؛ وهو حسن السيرة للغاية ، حر الضمير مهذب الفكر . هل وافاكم لقيده لديكم ؟ فان يكُ ذلك فهو اهل القبول والاحتفاء !

وبانتهاء هذه المحاورة التلفونية يعود المدير فيطالع الشهادة وغب لحظة يلتفت الى ابي الطالب متشقق الجبين عن ابتسامة خفيفة لا تخلو من الجفاء ويقول له :—

— بناء على هـذه الشهادة وعلى هذه المحاورة قد قبلنا ابنك طالباً بمدرستنا على ان تهب له حريته فلا تضايقه في اي شيءٌ ! فنحن فيما بعد المسئولون عن امر تهذيبه وتربيته وارشاده مـا دام تلميذاً بين ايدينا . فان قبلت بهذا فادفع نفقاته المدرسية وهي سنوياً سبعون جنيهاً انكليزية .

(يضع الشيخ سليم هذا المبلغ امام المدير) . وحينئذ يأمر بتسجيل فريد . ويعلنه بيوم الحضور .

***

واما « رشيد » فقد رغب في الانضمام لتلك المدرسة الثانوية الوطنية التي يدير شئونها احد اولئك الوطنيين الافذاذ الناهلين من العلم بسجل عظيم مع اخلاص جمٍّ وتفانٍ مقدس في سبيل الدين والوطنية وما اليهما من المبادئ القويمة .

وسرعان ما اسرع به والده الى حضرته . وبعد اطلاعه على الشهادة التي يحملها رشيد من المدرسة الابتدائية الوطنية أذن بقيده في سلك التلامذة .

لما النفقات الدراسية فهي ترجح [1] الأولى بمبلغ زهيد لايكاد يذكر

(١) اي تزيد عن الاولى .

سلم الوالد اول قسط من النفقات . فاخبره المدير باليوم الذي يحضر فيه ابنه النجيب رشيد الى المدرسة لابتدائه في الدراسة .

وفي اليوم الموعود بكّر « رشيد » الى المدرسة . وعقب اجراء الترتيبات اللازمة دخلت كل فرقة الى صفها . وكان صاحبنا « رشيد » مبتدئاً بالصف الاول .

وما هي الا هنيهة حتى جاءهم الاستاذ الاديب « فريد بك » فوقفوا لأداء التحية والاحترام . ووقف بينهم منشرح الخاطر والجبين ليلقي عليهم درساً في تاريخ الأدب العربي بموجب البرنامج الموضوع . فاجاد ، وافاد . ومما قال في هذا الصدد :

— قبل كل شيء انبهكم يا ابنائي النجباء الى أن ثروة لغتكم العربية في كلماتها ودقتها في الفاظها ، وانسجامها [1] في تعابيرها ، واقتدارها العجز على التعبير عن العواطف وخَلَجاتِ النفوس بجمل متناسبة المقاطع والاجزاء تفوق ريشة الرسام الماهر في التخيل والتصوير — كل ذلك مما سما بالادب العربي الى الذروة العليا خصوصاً في عصر نهضته الكبرى الغابرة التي من ينبوعها المعين استمدت — ولا نغرو — جميع الآداب الغربيةِ قوتهـا ونشاطها . وما عصركم هذا الذي تعيشون فيهِ إلاّ نشر دفينها القيم وَنَبْثُ [2] لمكنوزها الثمين بعد ان

(١) اي انتظام تعابيرها وحسنها (٢) اي استخراج

مضت عليه قرون يعلوه القتام ؛[1] فثابروا على احياء مواتها واجتهدوا في استعادة مركزها الاسمى فبكم تعقد الآمال !

وما انفك يمر بهم على بحث خصيب من هذا النوع حتى انتهت حصته فاعلنهم بالانصراف ·

ثم مازال يتعاقب امثاله من كفاة المعلمين على هؤلاء الطلاب واحداً يتلوه آخر حتى تم الدوام · فانصرف كل طالب الى داره ، وبالمثل صاحبنا « رشيد » ·

واتفق ان « فريداً » كان في ساعة قدوم اخيه « رشيد » جالساً الى الوالد يتحادثان في الاوضاع التعليمية وما الى ذلك · فلم يستقر برشيد المجلس حتى انهالت عليه الاستفهامات من كلا الوالد والأخ · وكان في مقدمتها السؤال عما قرأه من الدروس في ذلك اليوم · · فصار يسرد لهما دروسه اليومية ، واحداً بعد واحد حتى أتى على آخرها الذي هو في فن « الحكمة والكيمياء » والذي جاء فيه : « ان جابر بن حيان الكوفي العربي الكبير هو المؤسس لعلم « الكيمياء » الحالية ، وانه اخرج الى العالم علماً هو اساس المدنية الاوربية وانه واضع علم « الجبر » ايضاً · وان ابا بكر محمد الرازي جالينوس العرب الكبير » هو مكتشف حامض الكبريت وكبريتات

(١) الغبار الاسود ·

الحديد ، والجراثيم التي هي اسس الطب الغربي الحديث الخ . الخ »[1] .
فما كاد يطرق هذا النبأ مسامع فريد حتى اشمأز والتفخت اوداجه وقال في حماسة وتهور : —

عجباً ! هذا الانتحال المفتري هو كل ما تدرسون ! وكل ما به تتباهون كذبا ومينا ! ! من أين لأسلافكم بهذه المخترعات والمكتشفات وهم على ما درسنا أمة حاكية فقط وملة نقلية لاعقلية ولا مادية ؟ ! ! ! الحق غير ما تَلَوْتَ يا رشيد ! فهذه الامور كلها غربيةُ المنبت والمنشأ بدون تردد ولا توهيم . انما علينا اقتباسها منهم مع عَزْوِهَا اليهم وتمجيدهم ازاء ما افادوا به الانسانية المطلقة من غير تمييز ولا أثرة ولا الانية .

رشيد في امتعاض وتأثر — لا بأس عليك ! وانا غير عاتب عليك ! فهذا مبلغك من العلم ! وليس جاهل شيء مثل من علمه ، والتاريخ يغنيني عن اسقاط كلامك الفطير ، في مهاوي التزييف . وأرى لك ان تتدبر مغزى هذه الأبيات نابذاً عنك هراء السخافات فانما انت مثلي شرقي محض :

ان يفخر العربي بالعظماء من قومه وبنهضة شماء[2]

---

(١) انظر مبادئ الحكمة والكيمياء للسفرجلاني طبعة ثانية ص : ٣٧ وص : ٣٨ . (٢) من قصيدة للمؤلف .

فالشرق أسٌ بناء نهضته التي ... يسطو بعزتها على الغبراء
هلا تذكر يوم كان بجهله ... متخبطاً كتخبط العشواء
بنيا صروح النهضة العلياء ... في الشرق تنطح قبة الزرقاء !

وهنا ارتسمتْ على جبين الوالد الشيخ سليم بارقة جذل شفّت عن مبلغ استحسانه العظيم لِرَدِّ ابنه رشيد ، وقال : —

— زادك الله علما وحلماً يا ابني يا رشيداً كاسمه !

فانعكس هذا الاعجاب نار غيرة حامية في فؤاد «فريد» ونهض في غاية الاستياء ونهاية الكدر والانقباض . حتى إذا أظلم الليل ذهب الى احدى غرف القصر فارتمى فيها ، وما زال يغط في النوم المنكود حتى انفلق الافق عن قرص «ذكاء»[1] .

انتبه فريد اذ ذاك ، فقام وغسل وجهه وكفيه بصابون خاص به ، وتناول الفطور ، وجلس خالي البال . . . فلما رآه اخوه رشيد على تلك الحال نبهه الى ان هذا اليوم هو اليوم الذي تفتح فيه مدرسته فما باله لا يتهيأ للغدو اليها ؟ انسياناً ام تناسياً ؟

لم يفطن لذلك حتى وثب فارتدى بذلته التي هي من آخر (مودة) وهبط راكضاً الى المدرسة ، فوجد زمرة من الطلاب يعزفون بنشيد افرنسي لا يخلو في الجملة من دعاية استعمارية . . .

(١) هي الشمس .

ولما فرغوا منه اودع كل فريق منهم الى الصف المقرر باسمه . وفي الاول فريد
ومرت دقائق فقدم اليهم المعلم (الاجنبي) المستشرق مسيو نطا
فقاموا له اجلالاً واحتراماً ... ووقف هو حيث يملي عليهم درسا
في علم الصحة . استهله بالعبارة التالية :—

— لقف' امامكم الساعة ايها الطلاب لالقي عليكم درساً في علم الصحة . واقول لكم قبل كل شيء ان الشرق مدين للغرب لانه نشر مبادئ هذا الفن الجليل في ربوعه بعد ان كان لا يدري منه الا الاسم ، ولا يعرف منه غير الرسم . ولكي توقنوا ذلك يجب ان تطالعوا مؤلفات الغربيين الناطقة بالحق والدامغة بالحجج التي لا يمكن ان تقارع ولا ان تدافع . وحينئذ لا غرو انكم تلهجون بذكرانا وتقدرون مدنيتنا حق قدرها حيث انها اسدت الى الانسانية جمعاء خيراً عظيماً ونفعاً عمياً من غير التفات الى اختلاف الديانات ولا الاجناس .

احد التلامذة مستشكلا ومستوضحاً — قد قرأت في كثير من كتب التاريخ حتى الغربي خلاف ما تقرره لنا يا حضرة الاستاذ واذكر الآن ان من الآثار المتواترة منذ زمن اسلافنا الاولين : النظافة من الايمان . وهناك حديث مروي عن نبينا (صلعم) في ذلك للاعرابي الذي حضر لصلاة الجمعة وثيابه متسخة فقال (عليه

الصلاة والسلام) : «الا يجد هــذا ما يغسل به ثوبه» · وهناك تنويه عظيم عن مزايا حفظ الصحة اذ بها تكمل العبادة مما هو مدوّن في أسفار اسلافنا ، فالرجاء من حضرة الاستاذ ان يحل لي هذا الاشكال بلطيف حكمته ودقيق معرفته :

المعلم ممتقع اللون مغتاظـاً — قبحت من طالب غبيٍ جهول ! اتعارضني يا وقحُ ،! بينما انا اجهد فكري واكرس ذهنى لافادتكم بمبادئ هذا الفن المقررة ، بانياً لكم بجثى على اصول العلم الحقة التي لا لا يختلف فيها اثنان · تباً لك ياجهول ! (وينادي المراقب في احتياج وتحمس) — يا مراقب ! اخرج عنى هذا الخبيث ! واودعه غرفة «الايقاف» ! لتجاوزه حدود الادب ، وتمديه على برنامج المدرسة الواجب الاتباع ، ولكيلا يعود الى امثال هذه المعارضة العمياء الشاذة ابد الدهر ...

فريد ملتفتا الى المعلم في حياء وتواضع — في الحقيقة أن مثله يستحق الطرد من المدرسة اسبوعاً كاملاً ليتربى كما يجب ، ولئلا يحرمنا من اقتطاف ثمرات علمك الناضر ياحضرة استاذنا المحبوب !

بعض التلامذة متحمساً — الواقع ان هذه اسئلة وجيهــة لا اعتراضات شاذة اوردها زميلنا على حضرة المعلم بقصد الاستيضاح والاسترشاد ولكن ربمـا خانه الاسلوب بعض الشيء ؛ فالامل من

حضرة الاستاذ ان يشمله بواسع عفوه ويجيب بما يبرد غلته ويقنعنا معه !!!

فيحدق اليـه المعلم تحديقة المغضب الحاقد ، ويعود الى املاء الدرس فاذا فرغ منه تولى عنهم . ثم يجيء خلفه وهو بالطبع من شكله . . . وهكذا حتى يتم وقت الدوام اليومي . فيؤذن للطلاب عموماً بالانصراف . ماعـدا ذلك المسكين ، سجين (الصراحة) و (البحث عن الحقيقة) .

من دأب هؤلاء « الغربيين » انهم — بالرغم من تشدقاتهم الزائفة — اذا سد عليهم باب الحق وأوذنو بالغلب . فبدلاً من ان يقرعوا الحجة باختها ، ثم يرضخوا للحقيقة الراهنة — انهم بدلاً من كل ذلك يلجئون الى القوة ويصوغون منهـا حقائق مسلحة . . . ولا عليهم من هـذا التهافت فعندهم ان « القوة تخلق الحق » . . وهذا عين صنيع المعلم الأجنبي المستبـد المغرور مع ذلك الطالب المستفهم البصير !

. . .

بقي التلميذ المشار اليه سجيناً بتلك الغرفة المظلمة الكئيبة طيلة ساعات عدة كأنما اتى بجناية سياسية واشترك في مظاهرة استقلالية ، نادباً حظه المنكود الذي ساقه الى هذه المدرسة التي هي في الحقيقة

« مذئبة » مشيدة الجدران لصيد الضمائر والفتك بالحقائق — حتى قبيل ساعة الطَّفَلِ [1] . واذ ذاك صدر الاذن الى (البواب) بالعودة الى المدرسة واطلاق سراح الفتى المسجون ولكن بعد تهديده باللازم . فصدع هـذا بالأمر وانطلق من توه الى المدرسة ففتح عن الطالب وانذره بموجب التعليمات التي تلقاها بشأنه ...

اما هو فانه لم يكد يعلم بخروجه من البوابة الكبيرة حتى عاهد الله انه لن يعود الى هذه المجزرة العلمية مادام على قيد الحياة ...

واستبطأه والده لهذه المرة . فذهب يعدو في الشوارع والازقة والاسواق باحثاً عنه في كل مكان بعد ما اعطي الاشارات اللازمة عن فقدانه لدائرة الشرطة وسائر مراكز الأمن في البلدة .

وصادف انه بينما كان ماراً من الحيّ الذي فيه المدرسة لَمَحَهُ ابنه فهرول اليه ولم يكد يدانه حتى ارتمى على احضانه باكياً مستغيثاً . وقصّ له ما كان من امره مع الاستاذ الأجنبي ...

وختاماً رجاه بكل تلهف ان ينشله من هذه الهوة السامة ويدخله في المدرسة الثانوية الوطنية التي هي جدُّ ناصحة ومخلصة ووافية (هي التي فيها رشيد) فسمح له بذلك . واسترد النفقات . وتم انضمام ابنه هذا الملحوظ بعين السعادة الى المدرسة الموما اليها فكان من العبقر بين النابغين .

---

[1] الطفل : دنو الغروب .

استمر « فريد » في الدراسة على الاسلوب الذي يناسب افكار المدير الأجنبي وسائر المعلمين ، متخذاً من رشاوي التحف والدعوات الدورية سلماً ووصلاً لنجاحه . فما كاد العام الختامي للدراسة يتم حتى تقدم صاحبنا الى ميدان الاختبار بقلب هادئ وفكر مطمئن بالفوز فكان لذلك من الفائزين .

***

اما اخوه « رشيد » فانه لم يفتأ يُجِدُّ في دروبه بمدرسته تلك الوطنية بكيفية عطفت اليه انظار سائر الاساتذة ، مُنْتَقِلاً من صف الى اعلى ، ومن سنة الى أرقى حتى دنت ايام الفحص النهائي فتقدم اليه بكل اقدام فكان في مقدمة الناجحين بحق والسابقين بصدق .

***

ها هما الطالبان التوأمان قد استحصل كل منهما شهادة (البكالوريا) من كلتا مدرستيهما . وها نحن سنرى ما يكون من امر كل منهما بعد الآن :

٧ = رشيد ينتظم في سلك المدرسة العالية الوطنية

تقدم « رشيد » الى عميد[1] هذه المدرسة العالية الوطنية :

(١) اي رئيس ومدير .

« الدكتور عبد الله شاكر بك » – بشهادته التي حازها من الثانوية وطلب من حضرته ان يقبله طالباً لديه . فبعد اطلاع العميد على الشهادة المشار اليها اجاب بالايجاب في فرح واغتباط وعين له موعد الحضور .

ففي الوقت المحدود تأهب رشيد بما يلزم واسرع في نشاط الى المدرسة . وبعد ان اجريت الترتيبات النظامية توزع الطلاب على الصفوف . وكان صاحبنا « رشيد » في الصف الاول . وغب هنيهة دخل اليهم الاستاذ الاجتماعي الكبير « السيد محمد منير » . ثم ابتدأ في املاء الدرس عليهم . فكان في علم الاقتصاد ، واستهله بشرح اسباب سقوط الشرق عامة والعالم الاسلامي خاصة والعربي بالاخص ، من الناحية الاقتصادية باسلوب طليّ جذاب خال عن التكلف والتعقيد والتمويه والتضليل ومما القاه في هذا الصدد : —

— ايقنوا يا ابنائي النجباء ان لسقوط بلادكم هذه اسباباً شتى اقتصاديه وغير اقتصادية ! والذي يهمني تنبيهكم اليه الساعة :

الوجهة الاولى :

افيدكم ان من افدح ما نكبتم به في العُصُر الاخيرة عدم الاهتمام بالمسائل الاقتصادية التي عليها عمدة الحياة للأمم والشعوب خصوصاً في هذا العصر الكهربائي القاسي الذي ينتهجُ فيه القويُّ بقتل

الضعيف ليتخذ من رُفَاتِه[1] مادة يزداد بها قوة وعتوا واستكباراً وعلواً في الارض ... الخ . الخ .

فلما اذن بانتهاء مقرره خرج من عندهم . والقلوب مغطسة بحسن القائه واجادة بيانه .

وتوالت الدروس تعقبها الفسح حتى انتهى الدوام فعاد كلٌ الى منزله واذ قرب « رشيد » من القصر ادهشه مالاحظه من وقوف والده امام البوابة الكبيرة على خلاف عادته كأنما هو في انتظار قادم . ولم يكد يصل اليه حتى ضمه الى صدره وقال له في حنوِّ الأب الرؤم : —

— قواك الله ياولدي . فقد بلغني من حضرة العميد الساعة حسن سلوكك واجتهادك . بارك الله فيك .

***

لم يزل « رشيد » مكبًا على الدراسة بكل جد وتفانٍ مراعياً لنظام المدرسة بكل دقة ، حائزاً لذلك درجة « الامتياز » في عموم الامتحانات الخصوصية والعمومية حتى اكمل التحصيل العالي بحق . فصار يشار اليه بالبنان من بين سائر الاقران .

ولما لشخصيته البارزة من منزلة عالية في نفوس زملائه : اقاموا

---

(١) الرفات : العظم البالي .

له حفلة تكريم حافلة ، ألقيت فيها غرر القصائد تنويها بنبوغه ، ورتلت بها درر الخطب اعترافاً بميزته ·

والتفوقه العظيم عينته ادارة هذه المدرسة العالية التي تخرج منها اخيراً : « معلماً اول » فيها بمرتب مناسب لوظيفته ·

فظل ينثر على الطلبة ما تحويه كنانته من نفائس المعارف ولطائف العلوم بذلك الاسلوب الشهيّ المفيد · فما هي الاّ بضعة اعوام حتى تخرج على يديه خلق كثير من ناشئة الوطن الذين قاموا فيما بعد بشتى الاعمال العلمية والادارية في كفاءة واقتدار ·

٨ — رشيد يتقدم طالباً بكلية الحقوق

لم يكن الشاب النابغ بلهَ الاستاذ العبقري الصاديء الى موارد العلم المنيفة : « رشيد افندي » ليقنع بالبقاء والرسوب في هذه المهنة : مهنة التعليم · وهي على ما تعلم ضيقة الارجاء محـدودة الجوانب · فمنذ السنة الثالثة لممارسته هاته المهنه داخلته سآمة من جانبها · سببها ما لاحظه من انه ان اخلد اليهـا لخلود المستكين المستديم فستبقى آماله الراقية مسجونة مكبلة في عالم الامانيّ ··· لذلك فكر فـي عاقبة امره طويلاً · فكانت نتيجة ذلك التفكير العميق ان صمم على مغادرة هذه الدائرة المحدودة ، لينطلق الى ما لعله يكون كافلاً بتحصيل مستقبل ارقى · وذلك بالالتحاق بكلية الحقوق الوطنيـة

التي يعلم انه اذا تخرج منها يفتح امامه باب واسع من العمل الحر والسعي المفيد المثمر ·

ولكنه وهو العالم بالأثر السيء الذي يخلفه خروجه هذا في قلب العميد العطوف فكر مليا ايضا في التدابير اللازمة لاسترضائه من دون انزعاج ولا تكدير · وإذ تم له ما اراد اعترضته عقبة اخرى وهي اقناع ابيه بالفوائد الجلي التي سيجنيها من فعله هذا ثم استمداد موافقته ومساعدته ·

وكانت ليلة مقمرة زاهرة سرى النسيم فيها عليلاً الى اغصان الحديقة الملتفة الانيقة المحتفة بالقصر البديع فأثار النسيم منها حفيفا موسيقيا جذابا واتفق ان الوالد الشيخ سليما عاد في تلك الساعة من صلاة العشاء فآنس آثار ذلك الجمال الطبيعي الاخاذ فمال الى كراسي مصفوفة بوسط تلك الحديقة الغناء واتكأ على احدها مستنشقا عبير الازهار الفائح متمتعا بمنظرها الجميل وصادف ان لاحظه رشيد في تلك الحال فخف اليه قائلاً في نفسه املها الفرصة سنحت · وبادر بلثم انامله ثم جلس بالكرسي الذي على يمينه في صمت وتواضع فكانت من الوالد نحوه ملاطفات جمة شجعته على عرض طلبته باسلوبه اللطيف الساحر :

رشيد يخاطب والده مستعطفا — اطال الله عمر سيدي الوالد في

سعادة . وبعد فهل يأذن لي مولاي بعرض امنية فريدة طالما حاكت في صدري عدة اشهر

الوالد — قل يا بني ما تشاء : لا زلت موفقاً باراً

رشيد — اني بفضل الله ثم بحسن عطف الوالد وعنايته قد كنت اكملت التحصيل التحضيري فالابتدائي فالثانوي فالعالي . وقد استحصلت على شهادات الجميع من اعلى الدرجات كما في كريم علمكم . ولقد كان أن انتخبني حضرة عميد التالية فضلاً منه وحسن ظن بي (معلما اولَ)فيها . ولكني مع ذلك لاازال أراني في تضجر من المكث على هذا الحال . ذلك لما ادركه من نقص معلوماتي . وفي وسعكم يا مولاي اكمال نقصي وسد خللي .

الوالد بكل حنوٍ — لِتُبْدِ ما في ضميرك يا ولدي بكل صراحة (بارك الله فيك) فما انا من المتكلفين .

رشيد — نعم يا ابت : الذي اعرضه على مسامعكم الكريمة رغبتي الوحيدة في الانتظام بكلية الحقوق الوطنية الاسلامية لأحوز درجة التخصص في هذا الفن الباهر الذي أصبح وعليه المعول في تصريف الشئون البشرية الكلية والجزئية .

الوالد — هذا كل ما تروم : اهنأ فاني جدُّ موافق : وما عليك الا الاستعداد ؛ وعلي هاطل الإمداد :

وفي صباح تلك الليلة يتهيأ «رشيد» لدخول الكلية فيمضي الى عميدها واذ يعرض عليه غرضه يقابله بكل بشاشة وحفاوة ويأمر فيقدم الى هذا الزائر الكريم «اكواب» القهوة العربية حفاوة به وترحيباً . فما يعود الصباح الا وقد تم دخوله الى الكلية المذكورة وها هو قد اصبح من جملة طلابها بالفعل بعد ان كان بالامس القريب «معلماً اولا» بالمدرسة العالية، و«استاذاً» من خيرة الاساتذة .

وكان رشيد في حالته الدراسية على ما تعهد من اجتهاد ونشاط وما برح على تلك الخطة الناجحة يترقى في معارج الكمال حتى ازف[1] الفحص الختامي فاقتحمه بكل بسالة ونشاط واخيراً خرج من مضماره حائزاً قصب السبق والفلاح .

اقام الوالد له بمناسبة تخصصه وحوزه رتبة (الدكتوراه في الحقوق) حفلة شائقة جاءت في نظام بديع وترتيب بهيج .

وبعد عدة ايام اعلن «الدكتور رشيد» على صفحات الجرائد السيارة بانه سيمتهن «المحاماة» نصرة للحق على الباطل، وللضعفاء على الاقوياء، ونشلاً للابرياء من سجون التهم الباطلة الخرقاء ..

ولما هو مشهور به من حسن السيرة والعدالة مع المقدرة الفائقة

(١) ازف : اي قرب .

انهالت على « مكتبه » بالشارع الجديد « رِزَمُ » الوكالات كبراها وصغراها . فكان قديراً في كلا هجومه ودفاعه ازاء الحق بما طالبا هز نياط قلوب القضاة واجبرهم على الحكم له والرضوخ لما يقرر :

٩ — رشيد يتقلب في المناصب العالية

ظل « الدكتور رشيد » محامياً بارعاً محبوباً مشكوراً . ومازال اسمه وصيته يكبران في القلوب وتتسع دائرة تمجيدهما واطرائهما في الالسن والاسماع الى ابد بعيد .

لذلك كثيراً ماتناقلت الاندية العامة والخاصة اشاعات واقتراحات بترشيحه لعدة مناصب عليا ليفيد الامة من واسع خبرته وجليل مقدرته بما هي في حاجة شديدة اليه .

واتفق ان جُدِّدَ انتخاب اعضاء مجلس إدارة تلك المدينة فانتخب المحامي العبقري « الدكتور رشيد بك » بالاغلبية الساحقة — عضواً فخرياً في المجلس .

ولم يمكث بهذه العضوية عاماً كاملاً حتى طار ذكره في ارجاء الولاية بسبب ما يبديه من قَيِّمِ الملاحظات الاصلاحية ، وما يعرضه من اقتراحات بشأن ترقية المشاريع العمرانية والاقتصادية في المدينة الكبرى .

لذلك سرعان ما رشح عضواً في مجلس « النواب الكبير »

فانتخب بالاكثرية العظمى « نائباً محترماً » فيه عن اهالى تلك المنطقه باسرهـا . فصار عمادها الركين ، ولسـان حال مهامها المبين .

لبث في هذا المنصب الكبير ثلاث سنوات متواليات . وفي الرابعة صدر « مرسوم ملكيٌ » عالٍ بناءً على ترشيح الامة على لسان حالها « الجرائد الوطنية المخلصة » بترقيته الى منصة « رئاسة » ذلك المجلس الخطير نفسه .

وعلى الأثر انعم عليه « برتبة باشا » الفخمة بمرسوم ملكي آخر.

وهكذا اصبح التلميذ « رشيد » بفضل جده واعتدال مسلكه وأخلاصه لوطنه وتفانيه في تقديسه — رئيساً لأمته بارادتهـا نفسها .

ومن بعد ان كان يدعى بـ « رشيد » مجرد اسمه عن القاب التعظيم كسائر التلاميذ صار الآن لاينطق باسمه الكريم الا مقرونا بلقب « باشا » الافخم .

١٠ — التحاق فريد بالمدرسة العالية الاجنبية

لقد مر بك ان « فريداً » حاز « البكالوريا » من مدرسته الثانوية الاجنبية والآن سنأتي لك بصنيعه بعدئذ :

انه حسب مبدئه الدراسي قد ازمع اللحاق بمدرسة عالية من طراز الثانوية المذكورة واذ وافق والده على رأيه هذا انطلق مهرولاً الى مديرها الاجنبي هو الآخر حاملاً بيده الشهادة الاخيرة. فكان من هذا ان احتفى به لانه عمل « في نظره صَالِح » ثم قيد اسمه في الطلاب الجُددُ بدون ادنى تردد · غير ان نفقات الدراسة بهذه المدرسة باهظة بالنسبة لما تقدم · فهي سنوياً ستون ليرة ·

وفي بكرة اليوم الموعود نهض من النوم في نشاط · وما هي الا لحظات يسيرة حتى ارتدى ملابسه وهبط مُيَمِّماً (١) شطر المدرسة · واذ دخلها لاحظه المدير الذي لما تحقق ان القادم هو الطالب « فريد » دعاه في تلطف واكرام ، ثم قال له : —

لتحيَ ايها الطالب النجيب ، الفريد ! فلقد تأكدنا نبوغك وتفوقك الباهر في جميع حلقات الدراسة التى تجاوزتها بالمدارس الراقية من تحضيريتها الى ثانويتها · والذي نرجوه ان تحق فيك آمالنا وتصدق فيك فراستنا العالية !

لم يصل صدا هذه الملاطفة الأبوية الى مسامع التلامذة المصطفين حتى اتقدت في قلوبهم شعلة الغيرة متسائلين فيما بينهم : من هو هذا الطالب الذي استحق من سعادة المدير كل هذه الملاطفات النادرة،

(١) اي قاصداً المدرسة ·

اما هو فلا اكتمك انه قد كان يطير على اجنحة السرور اذاء هذا الالتفات السامى الذي هو غاية مناه من دينه ودنياه ·

وبعد هنيهة اجرى فيها اللازم بموجب الاصول المدرسية أوعِزَ الى كل فريق بدخول صفه · وكان فريد طبعاً في الصف الاول منها ·

وما استقروا على مقاعدهم حتى وافاهم المعلم « طليق افندي » وابتدأ في إلقاء درس عليهم كان في التاريخ البشري العام · فبينما هو يشرح لهم الادوار الاولى للأنسان اذابه يتدرج من هذا البحث الى الايقاع بعرض التاريخ الشرقي عامة في كل القرون الثلاثة : الاولى والوسطى والحديثة ·

واذ اتم درسه ولاهم الادبار · · · (والى حيث القت · · ·) واتى من يَلِيهِ حسب النظام المقرر · وهكذا حتى انتهى زمن الدوام بذلك اليوم ·

عاد الطلاب الى ذويهم وصاحبنا « فريد » الى منزله ·

هذه المرة لم يباحثه الوالد ولم يستفهمه عن اي شأن من شؤون المدرسة سوى أنه بعد اطراقه طويلة التفت اليه فاوصاه من تلقاء نفسه بالمحافظة على تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ليضمن لنفسه كلا جانبي الفلاح الدنيوي والاخروي ·

(فأوما فريد برأسه في اظهار امتعاض وتأثر وقبول) ·

ولكن ياليت شعري ! ماذا تغني تلك الوصية ، بل ماذا تجدي هذه الايماءة الماكرة وفريد قد رسخ في ذهنه صحة هذه القضية وثبوت نتيجتها :

(سيدي الوالد شرقي صميم ، وكل شرقي صميم فهو مخرف ، وكل مخرف تجب مداهنته موقتا ما دام يوجد هناك احتياج اليه) ؟

ذلك ماطرق فكر فريد في لحظة نصح ابيه اياه . فعمل بمقتضاه وفي الواقع فهذا بعينه هو مايتطرق الى كثير من امثاله في امثال هذه المواقف الحرجة ...

واذاً فان الوالد « وهو السليم النية » بلاريب قد اغتر بظاهر حال ابنه فريد ازاء نصحه الوحيد ..

* * *

انت تدري ان هذه المدرسة العالية هي من قبيل سالفتيها : الابتدائية والثانوية . واذاً فانت مدرك معنا انها (وهي العالية ..) ادرى باساليب الافساد والتضليل ، والخداع والتمويه .

واذاً فقد وَجَدت من عقلية فريد مرتعا خصيباً لبذر ما في جُعْبتها[1] من سموم فتاكة وجراثيم قتالة .

---

(١) الجعبة : وعاء السهام .

١١ — فريد واغراآت زميله الفتى الفرنسي

كان بالصف الذي فيه صاحبنا « فريد » وعلى مقربة من مقعده فتىً من اسرة افرنسية اتخذت من ذلك البلد الوفير الخيرات النضير الجنات — وطناً ثانياً اغتناماً لفرصة التنعُّم بين ظلاله الوارفة وغيوثه المغدقة على ما اعتاده كثير من بؤساء ومنكوبي « الغرب » الذين ينضب ماء المعيشة في وجوههم ببلادهم فينثالون على الشرق زرافات ووحداناً ليُشبعوا سَغَبهم[1] وأطماعهمْ منه باسم التَّمدِين والتَّعمير...

وكان هذا الفتى الفرنسي مَرِحاً براق العينين غائرهما مجداً في تلقف وحفظ دروسه . ونظراً لبعض تلك الخصال فقد اتخذ منه « فريد » ذلك الصديق الودود .

فصار ديدنهما[2] في أغلب الاحيان : ان يتناوبا في تناول الطعام .

فمرةً يتغديان معاً بقصر ذاك ، واخرى يتعشيان سواء بالفندق الذي تقيم فيه عائلة هذا .

وعلى توالي الايام استحكمت بينهما عرى الصداقــة والمودة أيما استحكام .

فكانا اليفين لا يكادان يفترقان ، اللهم الا في ساعات المنام .

وكان دأب الفتى الفرنسي مع صديقه فريد محاولة اقناعه دائماً

---

(١) السغب : شدة الجوع . (٢) الديدن : العادة .

بعظمة مدنية الغرب مع الازدراء من طرف خفي بماضي الشرق كافة والعالم الاسلامي العربي خاصة ، والانذار بتعاسة مستقبلها معاً .

وكان هذا الانذار ، وذيانك التبشير والتنفير : عملاً باوامر كان يتلقاها من عميد هذه المدرسه المالية الذي يَمُتُّ (١) اليه بقرابة نسب ، والذي طالما أغْدَق (٢) عليه وابلاً من الانعام مقابل دعايته هاته الطيبة في نظره الوحيد !

ولم يكد الفتى يشعر بقرب انقضاء امد دراسة خليله فريد حتى جعل نقطة ابحاثه المستمرة معه — اغراؤه بالقيام برحلة الى قارّة اوروبا عامة وبالاخص عاصمة فرنسا المدهشة ، « باريس » ام العلم والانس والجمال ، باريس ام الحضارة والترف والنعيم ، باريس « إِرَم » القصاد ، التي لا يوجد الآن مثلها في البلاد !

ويعزّ زُ له هاته الفكرة بقوله في خداع ودهاء اوروبيين : والذي يجعلني اعتقد انك ستهنأ وتسعد في هذه الرحلة الميمونة ياعزيزي ما ابشرك به الساعة من ان لسيدي الوالد بتلك العاصمة الخالدة اصدقاء كثيرين من ذوي الهيئات والشخصيات البارزة — نظراً لاننا من سلالة النبلاء الامجاد — واذا التمستُ منه ان يكتب لك اليهم توصيات خاصة فلن يتأبى بتاتاً لما يعلمه من الارتباط الودي

(١) اي يتوصل اليه ويتصل به . (٢) اي امطر عليه .

الذي بيني و بينك · وعلى كل فهذا متوقف على استحسانك واشارتك اولا و بالتالى على موافقة والدك الوقور !

صادف هذا الاقتراح هوى كامناً بين جوانح صاحبنا فريد · لذلك سرعان ما اجاب صديقه الفرنسي في كل بشاشة وامتنان :

— اجل يا عزيزي الوحيد اني لمستحسن جداً لهذا الاقتراح النزيه الذي ابديته لي كصديق مخلص يهمه سعادة ورفاهة صديقه · لذلك اقدم اليك شكري الجزيل مؤملاً ان تقابله بالقبول :

على ان هذا لا يمنعني (نظراً لقاعدة : اذا ثبتت الالفة سقطت الكلفة) ان اصرح لك بانه « اي الاقتراح » هو شيئ كان يدور بخلدي منذ عدة اعوام

والذي اعلمه من سلامة وعطف قلب ابي سليم نحوي : جعلني اعتقد من قبل انه لن يقف حجر عثرة في سبيل اتمام ما ارغب فيه من هذا الشان · ولكن على شريطة ان امهد له الوسائل اللازمة : « وأتوا البيوت من ابوابها » ولا اراها متهيئة الا بعد خروجي من هذه المدرسة ونيل شهادتها العليا : هناك اذا طلبت من الوالد الموافقة على النزوح [1] الى باريس باسم التخصص فلن يمانع ·

وهنا ترتسم ابتسامة سرور وشكر على وجه « الفتى الفرنسي »

---

(١) اي الرحيل ·

نظراً لما ابداه فريد من حسن الظن به ، ولحسن ما أبانه من الحيلة للتوصل للغرض المنشود ·

وها دور الاختبار النهائي قد قدم · ولم يكد ينقضي حتى بشر فريد بالنجاح

ولما تناول شهادة « الليسانس » اسرع بها نحو أبيه متهللاً ضحوكاً · ليهنئه اولاً بفوزه العالي ، وليؤكد لديه بالثاني علو همته تمهيداً للامر المقصود ·

ولم تكد تصل هذه البشرى القيمة الى مسمع الشيخ سليم حتى خفق فؤاده خفقة المأخوذ بالسرور العميق · وقد حاول كتمانها ، ولكنّ محاولته ذهبت سدًى ! !

فالفرح والحزن معاً اذا تملكا ناصية الفؤاد فاني لبشرة الجبين وهي الشفافة اللطيفة ان تستطيع حجبهما ! بل انهما بقوتهما الهائلة سرعان ما يخرقانها فيغشيانها كما يغشي الليل النهار والنهار الليل سواء بسواء ·

وما يكاد « فريد » يفطن بهذه الظاهرة التي استولت على مشاعر ابيه حتى ينبري[1] لعرض رغبته العالية في التخصص من مهد العلوم ، مرتجلاً شبه خطبة للسماح له بالترحال الى العاصمة : باريس ،

(١) اي يتهيأ و يستعد باهتمام ·

عاصمة العلم الحديث مبيناً ما يعود عليه وعلى الوطن من رحلته هذه من فوائد ادبية جلى لا يكاد يأتى على وصفهـا اللسان ، حيث ان غرضه الوحيد وغايته القصوى الانتظام بسلك احدى معاهدها العلمية الكبرى لاستحصال « رتبة دكتور » في الفلسفة والآداب معاً

ولما تعلم من الشيخ « سليم » من سلامة الضمير ، وطيبة الخلال قابل طلبة نجله هاته بالايجاب .

وفوق ذلك فقد اكد له انه مستعد في اي وقت شاء فريد نفسه بتقديم المساعدات المادية والادبية اذا كان منه تصميم وعزم .

١٢ — الابحار الى باريس

ومـا هي الا أيام حتى تأهب « فريد » للرحـلة القصوى على استئذان ورضاء من ابيه فنفحه [1] هذا بما يلزم له من نقود [illegible] بأن يطير اليه « برقية » بسرعة حال وصوله محط رحاله « [illegible] ليطمئن على سلامة الوصول .

ها هو فريد على الرصيف يعانقـه والده الشيخ معانقة الوداع ، راجياً ان لا يجعله الله آخر عهد به — ؛ وموصياً اياه بالمحافظـة على

(١) اي اعطاه .

السير الحسن حتى لا تخلبه تلك[1] المناظر الفتانة ، و بالمثابرة على الاجتهاد ليسرع الأوبة عند انجاز المهمة العلمية الخطيرة التي يغترب من اجلها ·

ثم ها هي الاسرة المؤلفة من شقيق فريد : رشيد ، وابن عمه وخاله وصهر ابيه — محتفة به ، تدعو له بلسان واحد وقلب واحد بالتوفيق وسرعة العودة والسلامة من اهوال هذا البحر الهائج ·

• • •

اقلعت الباخرة « الايطالية » التي اقلت[2] فريداً عن « المرفأ » وسارت الى الامام ، شاقة عباب[3] اليم[4] الخضم[5] ، ماخرة[6] امواجه المزبدة المائلة في تجاهل واطمئنان : تحمل فريداً وغير فريد · والابصار حائمة وراءها عطفاً واشفاقاً حتى غابت عن الانظار تماماً ·

ثم ما هي الا ايام معدودة واذا بموزع البرقيات يقدم لسليم « تلغرافاً » من ابنه فريد يبشره فيه بوصوله الى باريس في صحة وسلامة وفق ما يتمنى ·

وبعد بضعة ايام اخرى توافى الوالد منه « برقية اخرى » يخبره

---

(١) اي لاتفتنه · (٢) اي حملت · (٣) اي امواج · (٤) البحر · (٥) البحر العظيم · (٦) اي قاطعة امواجه في سرعة وصوت ·

فيها بانه قد تم انتظامه بسلك احدى الجامعات العلمية العظيمة بباريس نفسها . ويلفت نظره الثاقب الى ان نفقاته الدراسية للثلاث السنوات التي يقضيها هناك لنيل رتبة «الدكتوراه» يجب ان تكون ضخمة .. ليظهر امام المنتمين الى الجامعة بالمظهر المناسب حتى يُزادَ الاعتناء بشانه من قبل الاساتذة والعميد .

دعا الشيخ ابنه «رشيداً» فاطلعه على هذه البرقية .. فما كان من هذا الا ان طفح وجهه بالبشر والسرور . ولكنه سرعان ما اكتسى بعارض من التأثر ثم قال : —

— احسن اخي فريد فيما اشار اليه من جهة ضخامة نفقاته فهو هناك كما لا يخفى على انظاركم السديدة يا مولاي في ارفه عواصم اوروبا وافخمها فأحرِ به ان تماثل نفقاته نفقات اقرانه هناك :

غير أني يا سيدي الوالد يسوءني ان الوح لك بما تفرسته من نيات ومقاصد فريد التي لا تتفق مع المظهر الذي تظاهر به في رحلته هاته . والمستقبل كشاف . وغاية ما اقول : —

— كفاه الله شر مزالق الحرية المشؤومة الضاربة اطنابها بتلك القارة النازحة [1] .

---

(١) البعيدة جداً .

وساد صمت بضع دقائق · نطق الشيخ إثرها بهذه الجملة في صوت خافت متهدج :—

— وانا ايضاً انفرس ... ولكن ... وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعلى كل فانا ما ساعدته على انفاذ امانيه الا رغبة في الوفاء بسابق عهدي ...

هذا ما دار بين الشيخ ورشيد عن فريد بمناسبة البرقية الاخيرة الواردة الى الاول من هذا ·

١٣ — المراسلة بين فريد ورشيد :

وتمضي ليال وايام اثر ذلك ، ويوافي البريد « الخارجي » حاملاً الرسالة التالية من فريد الى اخيه رشيد :

باريس في ١٥ اغسطس

شقيقي رشيد :

لاول مرة اثر وصولي للمدينة « الخالدة » باريس تراني أحرر اليك رسالتي هذه لأعطيك صورة مصغرة مما احتاط بي من الذكريات والشواعر أزاء هذا المحيط العظيم ·

وفي الواقع فاني لا اكتمك اني اجدني في هذه الساعة على جانب

عظيم من الحيرة والذهول بما اودعته في نفسي هذه المشاهد الراقية المدهشة من آثار الحضارة الاوربية الجيدة القائمة على أسس العلم الصحيح ومعجزات البخار والكهرباء :

الآن دقت الساعة عشرة صباحاً ، وقد حمي وطيس الاعمال المختلفة فلن ترى اينما تضع بصرك في هذه الميادين الواسعة الا نشاطاً مستمراً وحركة مطردة . فلا عاطل متسول ، ولا متطوع ولا ممنوع !

ويعجبني «ابن الغرب» في بذلته الافرنجية ، راكضاً في ميادين السعي الحثيث لايعرف معنى للفتور ولا سبيل للكلال والاعياء الى قلبه الحديدي الجبار . فتذكرت عندها حالتكم البائسة المحزنة : معاشر الشرقيين فما وسعني إزاء الحقيقه الملموسة الا التصريح لك : بانكم مجموعة امم همجية كسلى وان همجيتكم هذه ليست بابنة اليوم ولا كسلكم بوليد هذا الامس الذاهب ، بل انما هما عريقان فيكم منذ عهد الاسلاف الاولين الذين علمناهم في كل أدوار تاريخهم (كما تلقيناه بالمدرسة الاجنبية الابتدائية من قبل) — ألآفاً للبطالة وعشاقاً المرسوب في حمأة الخرافات والاساطير التي لاتتفق مع المنطق السليم والعقل القويم .

واذ ذاك ايضاً مرت بذهني نظرية المدنية العربية الغابرة[1] التي طالما تغنيت لي بها في البلد . . فلما قابلتها على ضوء التمحيص والعيان بهذه الحضارة الغربية الزاهية وجدت الامر كما كنت أصرح لك به حينئذ (الاشارة الى المحاورة التي جرت بينهما بشأن جابر بن حيان وابي بكر الرازي وقد مر ذكرها) .

فبالله عليك قل لي : هل أوجدت المدنية العربية كناطحات سحاب امريكا اوهل اخترعت كجهاز « ماركوني » او استحدثت ك « بالونات » زبلين ، او كان بها كمتاحف وجامعات باريس ، او . او . الخ . لاشيء من ذلك كله في المدنية العربية البائدة مطلقاً !

اذاً فالحقيقة التي يجب الرضوخ بها ان نستيقن جميعاً ان مدنية العرب هباء منثور بالنسبة لمدنية « اوربا » الحديثة الميكانيكية !

هذا وان في النية ان ساجعل هذا الموضوع الخطير : موضوع الكتاب الذي سوف اقدمه للجامعة التي انا فيها الآن — لنيل رتبة الدكتوراه في الآداب .

وبعد فقد اطلت عليك : واخيراً اقول لك ليس الخبر كالعيان ولا الوصف كالمشاهدة .

التوقيع : « فريد »

---

(1) اي الماضية

لم ينته « رشيد » من تلاوة هذه الرسالة حتى اشتعلت في قلبه جمرة الغيرة والاستياء الشديد . فتناول القلم من ساعته وحرر الى « مراسله فريد » الرسالة الآتية في تذمر[1] واغتياظ ، واودعها في البريد القائم الى باريس في اليوم التالي :—

اخي فريد ! ارشده الله :

تحية . وبعد فقد اخذت رسالتك التي ارختها بـ ١٥ اغسطس والتي كتبتها اليّ ابتهاجاً بمناسبة بلوغك الي باريس التي تصفها بالخلود . . .

وكم كنت مسروراً حين فضضتها[2] ، ثم كم عدت آسفاً متكدراً بعد ان تلوتها . اغلاط جمة ، وتطرف فاحش قادك اليهما معلموك المضللون . فجئت اليوم تصارحني بهما في وقاحة متناهية برسالتك هذه المشئومة . . .

تصف باريس بالخلود ! ! ! ومن انبأك بهذا ؟ ! وهاهم ابناؤها المفكرون ينذرون ليل نهار بقرب انهيار صرحها ، وذبول نضارتها ذلك لشيوع الادواء الاجتماعية والفوضى الاخلاقية هناك . فقد صارت « المواليد » تقل في تلك الانحاء يوماً اثر يوم — بينما سيل الوفيات جد منهمر[3] . . .

---

(١) اي غضب . (٢) اي حين فتحتها . (٣) اى سائل بكثرة وقوة .

فكانت الفطنة والواقع المحسوس يقضيان عليك — وانت المفكر الجريء — بالتأمل والتأني في وضع لفظة « الخالدة » اثر كلمة « باريس » تمشياً مع مبدإ الصراحة الذي اخذت على نفسك اتباعه ؟!!

ووصفت لي اندهاشك العظيم من آثار الحضارة الاوروبية القائمة على ركن العلم ومعجزات الكهرباء والبخار ..

وقدحت بفحوى اطرائك لتلك المدنية — زند الحط من حضارتنا الشرقية الباهرة ...

وكأني بفكرك الساذج يا فريد ؟ وقد حيل بينـه وبين التأمل في مآثر اسلافنا الذين لم يدعوا باباً من ابواب التمدن الا وجالوا فيه جولة صادقة لا تماثل ولا تدانى !

وهـلا تتذكر تلك الايام البيضاء التي كان رجالات الغرب يتفاخرون بترجمـة تآليف الاجداد ، وبتلقي العلوم والفنون فـي جامعاتنا العلميه الكبرى ببغداد وقرطبة ودمشق ومصر .

فليتك في هذا الرأي كنت على الاقل كغربي مطلع ومعتدل لتقلع عن هذه الآراء الواهنة المزيفة ، واذ ذاك تذكر ما قام به آباؤك الكرام في سبيل تشييد صروح المدنية — مما على انقاضه قامت قصور هذه الحضارة الغربية المادية التي سلبتك مظاهرها شعورك :

وذكرت انك لا ترى عاطلا ولا متسولا ، ولا مقطوعاً ولاممنوعاً فقبل كل شيء الفت نظرك الى تلك الحكمة العربية القائلة :

« وعين الرضا عن كل عيب كليلة »

نحن هنا الساعة نقرأ في شتى الصحف الغربية المعتمدة المبثوثة بين ايدينا ما يدهشنا و ينقض مزاعمك الخيالية المضحكة . وذلك من اتساع هوّة البطالة الضاربة اطنابها في تلك الاصقاع بين « ملايين » العمال مما يجر الى فوضى عامة ، وثورات طامة يقوم لهولها الغرب ويقعد وهذا بعكسنا نحن « الشرقيين » فاننا بالرغم عن تعداد ازماتنا الاجتماعية والاقتصادية ، وتشتت شملنا وفقرنا المادي الحاضر لانزال نفتخر بحق — بمواساتنا لمساكيننا وفقرائنا باشراكهم معنا عن طيبة خاطر في اموالنا بقدر الممكن ، وذلك مالا يدع لهم مجالاً لفكرة القيام باية ثورة هدمية يتأتى منها الخراب والدمار والانقلاب .

وتقول لي اعجبك ابن الغرب في بذلته الافرنجية فاستأت من حالتنا — اى من بذلنا الفضفاضة . . وارتكست في هذا الاستياء وذياك الاعجاب في طينة التهويش :

ويك ! ألم تسمع بنداء اجتماعيي واطباء الغرب نفسه بان الصحة والنشاط جاثمان في طيات هذه « الملابس الشرقية » التي تعيبها من طرف خفي ! — بينما هم انفسهم يجاهرون بخطورة الاضرار الصحية

التي تنشأ من ارتداء ثيابهم[1] وسترهم الملتصقة بالاجسام ، التصاقاً يحبس تنفس المسام ...

وتجاهر بهمجيتنا نحن الشرقيين ، في وقاحة كوقاحة طوائف المبشرين المستعمرين ، وتدعي انها تالدة فينا وسليلة اسلافنا العاملين وكأنك بهذا الذم اجنبي عنا ..

وتفنيد هرائك في هذا الصدد اغناني عنه عزوكه الى الذين سميت ...

وابنت لي يا فريد ، عن مبلغ جهلك بتاريخ امتك العربية المجيدة جهلاً لا اجد له مبرراً اصلاً .. وذلك حيث نوهت لي عن موازنتك الحمقاء بين حضارة اسلافك والحضارة الغربية الحاضرة فحكمت لهذه على تلك بدون استعراض الماضي واستقراء الحاضر . وفي الحقيقة فانت في نظريتك هذه « نصف » معذور .. اذ إنك لم تدرس من تاريخ الاجداد الا القشور مموهة ومصبوغة بصبغة الاستعمار والتزييف . والذي انصحك به ازاء هذا الجهل الشائن ان تعود فتدرس العلم من مبدئه من جديد ؛

هذا وفي الختام ارجولك السداد بعد الغي والرشاد بعد التيه والسلام

في ١٢ ربيع الاول « التوقيع : رشيد »

---

(١) القصد منها : البنطلونات .

وكتب باسفل الرسالة المحوظة الآتية :

أمرني الوالد باخبارك انه بعد بضعة ايام سيبعث اليك بمبلغ من النقود يكفل لك الطأنينة من جهة النفقات . وذلك بعد ان يتحقق اجتهادك هناك مع حسن السلوك كما اوصاك به سابقاً .

« التوقيع رشيد »

١٤ — اغتباط فريد بنجاح الحيلة وحوز الغنيمة :

وصلت هذه الرسالة الى فريد ففضها في تلهف واستطلاع . وما اوشك ان يأتي على آخر الملحوظة المذكورة بذيلها حتى دَبَّ الى جسمه سرور عظيم اذ ايقن بتمام « الدست »[1] على الوالد السليم .

اما ما كيل له بها — اي الرسالة — من الفاظ التقريع والتنديد : فلم يكن له أثر ما في فؤاده . لان الذي تظاهر به في رسالته السابقة شيء ، والهدف المقصود منها الآن شيء آخر .

***

والواقع ان « فريداً » لم يحمله عَلَى انتجاع القارّة الاوروبية النازحة وبالاخص عاصمة فرنسا الخلابة[2] — شدة الشغف بارواء الظمأ العلمي كما كان يقول ، او الغرام باكمال التثقيف الفكري بالتخصص كما كان به يتشدق دائماً بل كانت له غير ذلك مآرب اخرى كانت مطوية

(١) الدست : الحيلة . (٢) الخلابة : الفتانة .

في عالم «الصدور» وسعي بذلك التظاهر الذي نمّ عن فكرته الاساسية — الى اشباع نهمته[1] منها ...

فهو انما كتب رسالته تلك التي هي في غاية التطرف — الى اخيه رشيد توطيداً لنجاح حيلة استدرارها مع النفقات من ابيه العطوف ·

حتى اذا استلم كتابا مسجلاً منه ، مضمونه (بعد ابداء رضاه عليه ، والابانة عن اغتفار نزواته[2] الفكرية ازاء اغترابه للارتواء من مناهل العلم — اعلامه انه رغبة في انجاح مشروعه الدراسي الجليل : رسم له خريطة تشجيعه النهائي وفتح امامه طريق تشويقه التام · وذلك باراحته من التفكير في امر النقود والنفقات · فارسل اليه « شيكاً » على احد البنوك هناك (وسماه وعين له موقعه ونمرته الخ مايلزم) — بمبلغ الف ومايتي ليرة انكليزية · واخبره انه اوعز الى مدير ذلك البنك بوضع هذا المبلغ برمته رهن اشارة ابنه فريد الطالب بالجامعة « الفلانية بباريس » ·

فما قرأ فريد هذا الكتاب الاغر حتى لمعت على جبينه بارقة الجذل العميق وسرعان ما اختلق وسيلة غير شريفة لطرده من الجامعة طرداً نهائياً فابعده عميدها عنها وانذره بعدم العودة مطلقاً ، ودُوِّنت[3] الخطيئة التي ارتكبها والتي نفي من اجلها حذاء اسمه من دفتر الجامعة ·

(١) النهمة : الشهوة (٢) اي وثباته · (٣) دونت قيدت ·

فقابل هذا الابعاد بكل بشاشة وسرور!

وهرول من وقته الى حيث المبلغ المؤمن باسمه في المصرف[١] فاستلمه دفعة واحدة.

والآن أتدرى الى أين يطير؟!

ذلك ما سننبئه لك في الفصل التالى:

١٥ — الغرام باحدى كواكب التمثيل

إن لُبّ صاحبنا فريد كان دواماً يرفرف حول ذلك المسرح البهيج الحاوي — عشرات من كواكب التمثيل الباريسيات. ولذلك لا غروان يكون طيرانه في الحال الى هنالك: لأنه: «الى حيث يهوى القلب تهوي بك الرجل:»

غير انه تريث[٢] في اقتحام[٣] ذياك المسرح، بقدرما عاد الى الغرفة العليا التي استأجرها بذلك الفندق[٤] الفخم فاصلح من هندامه، وارتدي بذلة السهرات من ابدع طراز افرنجي.. ثم امتطى صهوة[٥] السيارة الصغيرة الجميلة التي ابتاعها بيومه لهذا الشأن نفسه. فقفزت[٦] به الى حيث يريد وقطع «تذكرة» باعلى واقرب المقاعد. وبدأت فرقة التمثيل المؤلفة من تلك الفتيات الحليمات في تمثيل فصل مغر

(١) المصرف: تعريب البنك. (٢) تمهل وتأنى. (٣) الاقتحام: الدخول.
(٤) الفندق: الخان (٥) الصهوة: المتن. (٦) اي وثبت به.

خليع ... وتعلق فريد باحداهن في تلك الليلة وانقضى الدور .
وعاد صاحبنا الى مقره بسيارته الفخمة تنهب به الشوارع نهباً كما
ينهب الغرام الآن نهبا !!

وصار ذلك ديدنه في كل مساء سمع فيه باعلان يشعر باقامة
تمثيل بأبهاء [1] ذلك المسرح المشهود .

وبطريق منه مباشر ادركت ابنة باريس الماكرة : « ماري بوفوع
هذا الفتى الشرقي الغرّ [2] الذي عليه سيما [3] الترف والثراء — في شرك
هواها . فما عليها اذاً الا ان تحقق : هل لديه ثروة متناسبة مع مظهره ؟
فان يك كذلك فانها ستغريه ثم تستنزف [4] ما معه من نقود : واذ
ذاك تجفوه !!

وفريد كما زَكَنْتَ [5] فتىً غِرٌّ لم يجرب الامور ؛ وبالتالي فتى حَظٍ
ولهوٍ وطرب لذلك سرعان ما اطلعها على مقدار ثروته ومنّاها الامانيّ
الطويلة العريضة . فألانت هي بدورها له القياد موقتاً حتى ابتلعت
ما معه من اصفر وابيض . واذ ادركت انه قد خلا وفاضه تنكرت
له واستوحشت منه ، واخيراً نبذت به مكانا قصياً !!

وها هو قد عاد طريداً بائساً ، وقد التظ فؤاده بانواع الهموم

(١) جمع بهو ، والمقصود به : محل اقامة التمثيل . (٢) الغر : الذي لم يجرب
الامور . (٣) السيما : العلامه . (٤) تستنزف : تستخلص . (٥) زكنت: علمت .

واصناف الغموم ؛ يتأوه تأوهات الحسرة والندامة كأنما قامت عليه القيامة !!

ولكنه وهو العارف ببساطة وحدب ابيه عليه عاد فجدد العزيمة ثانية ، وارهف من حد الرجاء المنثلم ؛ وقال في نفسه متفائلاً : —

لأكتبن الى ابي أستعطفه وأستجدبه من وفير خيراته ، وهو الكريم فلن يضنّ [١] على بفلس ، والشفوق فلن ينهرني [٢] عن بابه :

وبينما هو سابح في بحر هذه الفكرة الجديدة المنعشة ، يعد مواد رسالته الاسترحامية وبنسق [٣] جملها الجذابة في ذهنه : اذ بموزع البريد الخارجي يسلمه رسالة عادية عارية العنوان الخارجي من كل عبارات العطف والتكريم ، بعث بها اليه والده الشيخ سليم ففضها [٤] في تشاؤم وتلاها في قلق واضطراب . وما انتهى لآخر سطر من سطورها المؤثرة حتى القى بهـا الى الأرض ؛ وأجرى عليها وابلاً من الدموع الحارّة الحزينة ...

لعلك تتساءلني ماذا في الرسالة ؟

فاليك نصها :—

(١) اي لن يبخل . (٢) اي لن يطردني . (٣) ينسق : اي يرتب .
(٤) فضها : فتحها .

« الى فريد اليف المسارح وخدن[1] الممثلات بباريس :

السلام على من اتبع الهدى ، واجتنب طرق الردى : وبعد : فقد اتصل بي حديثاً عموم سيرتك المشئومة ؛ وصار معلوماً لديّ انك قد طردت من قبل — من الجامعة لفعلة شنيعة ارتكبتها كوسيلة لانطلاقك الى ميادين الاستهتار والفوضى والخلاعة ولقد خدعتني بمظهرك الكاذب سابقا · فهل التخصص يكون عادة في المسارح ؟ ! هذا واني جد ساخط عليك · وليكن هذا آخر عهد بيننا والسلام ·

في ١١ جمادى الثانية « التوقيع : « سليم »

· · ·

١٦ — النهاية المحزنة !!!

لم يكن من الخطأ ان ينقطع رجاء فريد بعدئذ من صلات والده ·· لذلك فانه اضطر مكرها ان يستوطن تلك المدينة على يؤس وانقطاع وسوء حال بالرغم من جمالها ، وتدفق أموالها ··· لأنه غرٍ جاهل ومترف عاطل ···

فظل بها يبحث عن مهنة يقتاتُ من دخلها أيّة كانت · واخيراً صادفه الحظ المنكود بمهنة « مسح الاحذية » فتشبث بها ··· على انه خصص ما يفيض من واردها اليومي الضئيل بحانة[2] ماثلة على

(١) الخدن : الاليف · (٢) الحانة : موضع بيع الخمر ·

بضعة امتار من « المسطبة » التي يعمل فوقها بياض ايامه ·

فكان دأبه انه — اذا أوَت « ابنة السماء » الى حمرها بالمغرب[1] لايلتفت لامرٍ ما ، بل ولا يهمه شأن ما من شئون الدين والدنيا ؛ الا ان يَغْدُوَ الى تلك الحانة في اشتيــاق ولوعة زائدة فيقدم الى « الخمار » كل ماتحوي محفظته من نقود · ويقول له بكمال التواضع والاستعطاف :

— عفواً يامولاي : فهذا كل ما أملك الساعة من نقود !

فيَتْرِعُ[2] له هذا كأساً بعد اخرى · وما يزال هو يشرب ويشرب حتى يُغمى عليه من شدة الثمل ، فيبيت بداخل عتبة الحانة وهو يعربد ويخور خوار العجول حتى يقرب الاسفار ...

***

فكانت ليلة ذات نحس ، جرى فيها بينه وبين بعض زوّار ذلك الحان نفسه من اشقياء الاوربيين — شجار عنيف بسبب من تلكم الاسباب الشيطانية انتهى باخراج ذلك الغربي السكران « مسدَّسه » وتصويبه الى دماغ « فريد » — قائلاً له في تذمر وحنق :—

— خذ هذا جزاء وقاحتك واستهتارك علينا وعلى أعراضنا في عقر ديارنا ايها الشرقي الغِرُّ الخبيث !

(١) كناية عن مغيب الشمس · (٢) اي يملأ ·